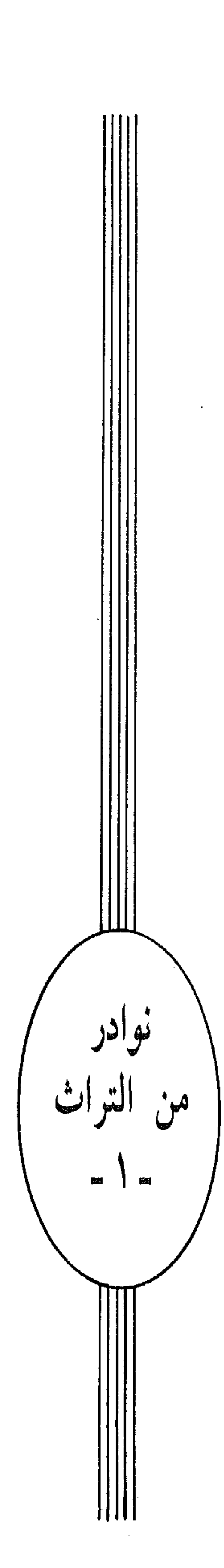


تقديم وتحقيق وتعليق
أبو بكر عبد الرازق

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت


نوادر
من التراث
- ١ -

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية — المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٢٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE



تقديم وتحقيق وتعليق

أبو بكر عبد الرزاق



- هل عذاب القبر على النفس والبدن؟! أم على النفس دون البدن؟!
- هل الميت يعذب في قبره حيّاً أو ميتاً!
- إذا عاد الروح إلى الجسد، فالروح والجسد يتشاركان في النعيم والعذاب؟! أو يكون على أحدهما دون الآخر؟!
- إجابة كل هذه التساؤلات لشيخ الإسلام ابن تيمية من خلال كتاب الله، وسنة رسوله، واجتهادات السلف الصالح.

بسم الله الرحمن الرحيم

●● مقدمة : (١)

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستهديه ونستغفره ، ونعـوذ بالله من شـرور أنفسنا ومن سيئـات أعمالنـا . مـن يهـد الله فـلا مضـل لـه ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما .

●● أما بعد :

فتلك إجابات لأسئلة تدور بخلد كل مسلم ومسلمـة حول : عـذاب القبر ، وهل هو على النفس والبدن؟ ! أو على النفسن دون البدن؟ !

وهل الميت يعذب في قبره حياً أو ميتاً؟ !

وإذا عاد الروح إلى الجسد ، فهل الروح والجسد يتشاركان في النعيم والعذاب؟ ! أو يكون عـلى أحدهما دون الآخـر؟ ! وابن تيمية رضـوان الله عليه هو صاحب تلك الإجابة أو الإجابات النادرة التي لم نصـل إليها . . أو لم يسبقـنا إليها أحـد من المحققـين الأعـلام ، حيث أننـا بحثنـا ، ودققنـا البحث عن نسخة تكون قد طبعت أو حققت فلم نجد . . واعتمـدنا عـلى الله سبحانه وتعالى وقمنا بتحقيق تلك الإجابات لابن تيمية ، ولعل أهم ما يميـزها اعتمـادهـا ـ أي الإجـابـات ـ عـلى الكتـاب والسنـة واجتهـادات السلف . . .

ولقـد قمنـا بضبط المخـطوط ، وتخـريـج الآيـات والأحـاديث ووضعنـا بعض التعليقات التي نـرى أنها لازمة لبيـان بعض ما غمض ، أو

(١) لعلّي أطلت في هذه المقدمة وجعلتها دراسة عن حياة وجهاد وعلم ابن تيمية كي يستفيد منها عامة القراء وهذا أفضل من وجهة نظري . .

كان في حاجة إلى زيادة إيضـاح . . مع تعـريف موجـز بشيخ الإسـلام ابن تيمية وأسرتـه وجو العلم الـذي نشأ فيـه . وأيضاً جـو الفتن الذي تسبب في تعرضه لعدة محن قاسية سجن فيها ، وهـاجر إلى أكـثر من موطن . . إلى أن لقي ربه وهو في السجن نتيجة تمسكه برأيه ، ووقوفه في وجه السلطان رافعاً راية الحق ، رافضاً الخضوع لسلطان الهوى . .

راجيـن من الله العلي القـدير أن يكـون في تاريخـه هـذا ، قـدوة لعلمائنا . لكي يُعَادَ للأمة مجدُها ، وتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة المنافقين ، والكفرة هي السفلى . .

ولقد بدأنا الحديث عن ابن تيمية بالتعريف به فنقول :

●● التعريف بشيخ الاسلام ابن تيمية :

هـو : أحمد تقي الـدين أبـو العبـاس بن الشيـخ شهـاب الـدين أبي المحاسن عبد الحليم بن الشيخ مجد الدين أبي البركات عبد السـلام بن أبي محمـد عبـد الله ، بن أبي القـاسم الخضر بـن محمـد بن الخضر بن عـلي بن عبد الله ، وتعرف هذه بأسرة ابن تيمية .

ولعلّ السائر في الطريق بين حران ودمشق حوالي سنة ٦٦٨ هـ يجـد أسرة كبيرة تسير في هذه الطريق - فُصلت عن حران - إلى دمشق تسـير ليلاً وتأوي الى كنٍّ آمنٍ منَ الأرض نهاراً ، قد فـرَّت من سيوف التتـار في ظلمة الليـل البهيم ، وهي في طريقهـا إلى حيث الأمن والاستقرار - آنـذاك - في دمشق الفيحاء مأوى العلـم والعلماء .

وقد ناءت تلك الأسرة بحملها ، فلم تجد من الدواب ما يحمله ، وما كان متاع هـذه الأسرة ذهبـاً أو فضة ، أو حليًّـا وطنافس ، أو غـير ذلك من

متاع هذه الدنيا، **بل كان حملها الذي تحمله هو تركة الأنبياء، وثروة الأجيال، هو علم الدين**، فسارت بأحمالها حتى آوت إلى ركن سديد بدمشق الفيحاء، ومع هذه الأسرة كان الغلام اليقظ العقل، والنفس، وهو في السابعة من عمره، قد تفتح حسّه، فوجد هذه الحرب الضروس التي ضرسته وأسرته بأنيابها، فصقلته التجربة، خاصة وأنه لم ينشأ في حلية فاكهة بالنعيم والأمن والاستقرار؛ بل نشأ في شدّة محّصت نفسه وجسمه.

●● قصة مولد ابن تيمية:

كان مولد ابن تيمية في العاشر من ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ ويذكر بعض العلماء أن مولده كان في الثاني عشر من هذا الشهر، ولعل أولئك يريدون أن يثبتوا أن مولده كان موافقاً لمولد سيد الخلق الرسول الخاتم تيمناً بأنه سيحمي سننه، ويدعم بالحجج شريعته، ويدافع عنها إلى أن يموت في محبسه.

ووالد ابن تيمية يذكر بالحرّاني، وأيضاً ينسب ابن تيمية هذه النسبة، والنسبة هذه إلى البلد دون القبيلة تشير إلى أنه ليس بعربيّ. لأن العرب يحتفظون بأنسابهم، وغير العرب لا يحتفظون؛ لكن الأستاذ/ بهجت البيطار المحقق الشهير - رحمه الله - أثبت أنه عربي نميري، ولا يعنينا الوقوف على نسبه؛ **لأنّ ابن تيمية يفخر به من يكون هو منهم. ولا يفخر هو بهم**. فما غضّ من مقام أبي حنيفة أنه فارسيّ. والعجيب أو القريب أن المؤرخين لم يذكروا شيئاً عن أمه، ولا عن اسم قبيلتها... وإذا كان أبوه قد مات وابن تيمية في مقتبل العمر، حيث مات سنة ٦٨٢ هـ، أي وابن تيمية في الحادية والعشرين، فقد عاشت أمه بعد ذلك، وعاشت أيضاً إلى أن رأت مجد ابنها يكتمل.

وقد صار المجاهد الأول لإحياء الشريعة، ودفع الأوهام عنها، وعاونته في جهاده ببرها وعطفها، وعندما كان في ميدان العمل بمصر من بعد الاعتقال، كان يرسل إليها كتباً تفيض عطفاً، وبرًّا ووفاء، وإحساناً. حتى إنه ليُخفي عنها آلامه؛ لكيلا تصيبها لوعة الألم والفراق معاً.

●● العلم نور يضيء مجلس صاحبه:

ويلاحظ على أسرة ابن تيمية عندما انتقلت إلى دمشق كان أول عمل لكبيرها أن يجلس في أحد مجالس العلماء ليمارس التدريس لطلاب العلم، إلى أن أصبح من العلماء الذين يشار إليهم بالبنان، وذاع فضله، واشتهر أمره. **حيث أن العلم نور يضيء مجلس صاحبه فترنو إليه الأبصار.**

فكان له كرسيّ للتدريس والوعظ بجامع دمشق الأعظم: «**المسجد الأموي**» وتولى مشيخة دار الحديث بالسكّرية، وبها كان سكنه، وفيها تربى ولده تقي الدين.

ومما لوحظ على درس ذلك العالم الكبير، أنه كان يلقي دروسه غير مستعين بقرطاس مكتوب، أو كتاب يتلو منه، أو مذكرات يستعين بها الوقت بعد الآخر؛ بل كان يلقي الدروس لمدة ساعات وساعات من ذاكرته الحافظة الواعية.

وهذا يدلّ أول ما يدل على قوة ذاكرته الحافظة، وثبات الجنان. وهي الصفات التي برز بها ابن تيمية تقي الدين، إذْ كان من أخص صفاته الحافظة الواعية والبديهة الحاضرة، التي كان يقرع بها الحجة، ويتحير بل ويُبْهر عندها المجادل.

●● نشأة ابن تيمية :

نشأ ابن تيمية في أسـرة علمية ، عملهـا البحث والدراسـة والقلم ، والبيان .

فكـانت بيئته تتجـه به إلى العلم وتحـدوه إليه . وتجعـل فيـه نـزوعـاً نحوه ، ومحبة له .

وقد وجهته الأسـرة إلى ذلك ، فـاستحفظ القرآن الكـريم صغيراً ، واستمر طوال عمره يستذكـره ، ويتعبد بتـلاوته ، حتى إنـه كان سميـره في محبسه الذي مات فيه ، فقد قال الـرواة إنه ختمـه في سجنه ـ أي القـرآن ـ ثمانين ختمة .

وقد وُجِّه من بعد القرآن إلى الحديث ، فأخذ يترع من مائه العذب .

وخصوصاً أن أباه على رأس مشيخة الحديث . ومع الحديث فقهـه ، ففقه الحديث لب الدين . وقد امتـاز ابن تيمية منـذ نعومـة أظفاره بثـلاث صفـات هي التي سارت بـه نحو الكمـال ، ونحو العلم النـاضج ، وهـذه الصفات هي :

(أ) الجدّ والاجتهاد والمثابرة ، والانصـراف إلى المُجْدِي من العُلوم ، فكان لا يلهو لهو الصبيان ، ولا يعبث عبثهم .

(ب) وتيقّظ حسّه ، وتفتح عقله ونفسه لكل ما حوله يدركـه ويعيه ، وقد ربّى ذلك فيه تتابع الأحاديث القارعة للحس مع عقل نافذ أريب .

(جـ) والذاكرة الحادة والفكر المستقيم . وقد كانت ذاكـرته حـديث الغلمان من زملائه ، وتجاوز ذلك الصبيان إلى الرجال فتسـامعت به دمشق وما حولها . وقد ذكرت في ذلك روايات وأخبار قد يبدو بادىء الأمر أنها من

صنع الخيال، ولكن المتتبع لحياة ابن تيمية من بَعْد، يذعن لصدق جُلِّها إن لم يصدقها كلَّها.

ومهما تكن قيمة هذه الأخبار، فالثابت أن ابن تيمية قد آتاه الله تعالى ذاكرة واعية. والذاكرة هي القياس الأول للذكاء قوة وضعفاً، وقد ورث ابن تيمية هذه الموهبة عن أسرته.

●● عالم موهوب:

اتجه أحمد تقيّ الدين إلى العلم كشأن أسرته، فقد كان أبوه على مشيخة الحديث في بعض مدارس دمشق كما أشرنا، ولم يكن تاجراً كأبي حنيفة إذ كان أبوه تاجراً، ولذا كان ينصرف إلى الأسواق في صدر حياته، ولم ينقطع عنها طوال حياته، فكان المنطق أن يتجه تقيّ الدين إلى العلم.

وكان المنطق أيضاً أن يتجه بعد القرآن إلى الحديث، ويجعله هَمَّ نفسه في الطلب، وقد تلقاه عن أبيه، وسمع الكتب على مشايخ الحديث الكبار، فسمع منهم الدواوين الكبيرة، كمسند الإمام أحمد بن حنبل، وصحيح البخاري، وصحيح مسلم، وجامع الترمذي، وسنن أبي داوود، والنسائي، وابن ماجة، والدارقطني، ويذكر بعض معاصريه أنه حفظ: «الجمع بين الصحيحين» للإمام الحميدي..

وقد اتجه مع الحديث إلى الفقه الحنبلي، فقد كان فَقِهَ الحديث، وهو مذهب أسرة ابن تيمية، فكان أبوه هو الموجّه إليه فيه، فقد أخذ يعبّ منه حتى أشرب منطقه، وعلم كلياته وجزئياته.

وكان معنياً في صباه، يتعرف آثار الصحابة والتابعين، وأقوال التابعين وشيوخهم من الصحابة، في معنى آي القرآن الكريم، والسنة والفتاوى.

●● هل كان ابن تيمية مندفعاً من غير حجة؟

ولم تكن دراسته مقصورة على علم الدين وحده من كتاب وسنة، وفقه السنة، ومعاني القرآن، بل عنى بأداة هذه العلوم الدينية، وهي علوم العربية، فدرسها كأنه يقصد إليها ليتخصص فيها، فحفظ كثيراً من المنثور والمنظوم، وأخبار العرب في القديم وأيام ازدهار الدولة الإسلامية، وبرع في النحو براعة واضحة، حتى إنه ليقرأ كتاب سيبويه، ويدرس شواهده دراسة فاحصة ناقدة، فيخالف بعض ما انتهى إليه سيبويه معتمداً في المخالفة على ما درس في غيره، فلم يكن المتهجّم من غير بَيّنَةٍ، ولا المندفع من غير حجة وسلطان من الحق مبين.

ومع هذه العلوم الدينية الزاخرة كان يرهف فكره وعقله بالعلوم الرياضية، وآراؤه التي ظهرت من بعد تدل على إلمامه بآراء الفلاسفة وبعض العلوم الفلسفية كالمنطق، وإذا كان له كتاب في نقض المنطق، فإنه على معرفة به معرفة دقيقة، مكّنته من أن يناقضه، فلا يمكن أن يناقضه وهو يجهله، بل لا بد من معرفة فائقة ناقدة فاحصة.

●● عالم في الفقه والعقيدة:

كان يسير في هذه الدراسة تحت ظل أبيه، وقد كانت ملازمته لهذا الأب العالم ذات جدوى مثمرة، وقد قال أبو حنيفة رضي الله عنه في التوجيه العلمي عندما سئل عمّن وجّهه؟! فقال «**كنت في معدن العلم والفقه فجالست أهله، ولزمت فقيهاً من فقهائهم**».

وقد تحقق الأمران لتقي الدين، فقد لازم أباه، وكان في معدن العلم دمشق، فإن ذلك المصر كان ثاني اثنين من أمصار المسلمين آوى إليهما العلماء في المشرق والمغرب، وأول المِصْرَيْنِ القاهرة، فإن العلماء من المغرب أخذوا يلتجئون إلى القاهرة ليجدوا فيها الحماية في ظل حكامها

الذين كانوا يحسنون ضيافة العلماء وإيواءهم، ويجرون الأرزاق عليهم، ويحبسون الأحباس لهم، ولما أغار الصليبيون من قبل أخذ العلماء يتجهون إلى دمشق، ثم إلى القاهرة.

ولما أغار التتار على الشرق، واستولوا على المدائن الإسلامية يعيثون فيها فساداً، حتى سقطت حاضرة الخلافة في أيديهم، فـرَّ العلماء بعلمهم إلى دمشق، ومنهم من اتخذ منها مستقراً ومقاماً، ومنهم من نأى به الخوف فاجتازها إلى القاهرة العامرة المحفوظة برعاية الله تعالى.

●● كان الدارس يطلب الحق بأيسر كلفة:

كانت دمشق إذن في عهد ابن تيمية مأوى العلماء، وقد آوت أسرته إلى ذلك العش الكريم. وكان فيها مدارس للحديث والفقه الشافعي، والفقه الحنبلي وغيرهما، فقد كان فيها أمثال **عز الدين بن عبد السلام**، ثم **النووي وابن دقيق العيد**، يدرسون الفقه والحديث دراسة فاحصة، فيقارنون في الفقه بين المذاهب الإسلامية، كما ترى في كتاب المجموع للنووي، وكما ترى في كتاب المغني لموفق الدين عبد الله أحمد بن قدامة، وهو حنبلي.

ويدرسون مع الفقه الحديث دراسة فاحصة لرجال الأسانيد، ومتون الأحاديث، وموازنة المرويات بعضها ببعض، وقد جمعت الأحاديث ودونت فكانت الدراسة على بينة، واستقرار، وفحص، وقد زخرت المكاتب بالكتب الضخمة التي أنتجتها الدراسة في ذلك العهد، حتى أن القارىء ليقرأ الباب من الأبواب، فيجد الأحاديث الواردة فيه مجتمعة كلها، غريبها وحسنها، وصحيحها وضعيفها، مع التنبيه على مراتبها وما بينها من توافق وتعارض، وتضعيف أقواها لِمَا هُوَ دُونه في المرتبة، فيسهل على الدارس طلب الحق بأيسر كُلْفة.

وكان في دمشق مع الفقه والحديث دراسة العقائد، وكان السائد هو

مـذهب أبي الحسن الأشعـري ، وكـان يتبـع عـلى أنـه السنـة ، وقـد قـواه صلاح الدين ، ويقول المقريزي في خططه : «حفظ صلاح الدين في صبـاه قصيدة ألفها قطب الدين أبو المعالي مسعـود بن محمد النيسـابوري وصـار يحفظها صغار أولاده ، ولذا عقـدوا الخناصر ، وشـدُّوا النيات عـلى مذهب الأشعري ، وحملوا في أيَّامهم كافة الناس على التزامه ، فتمادت الحال عـلى ذلك في جميع أيام الملوك من بني أيوب ، ثم في أيام مواليهم الأتراك» .

وقد كان أبو الحسن الأشعري مع استمساكه بالسنـة يسير في إثبـات العقائد في مسار المنطق والفلسفة ، فهو يتفق مع السنيين في النتائج ، ولكن يسلك في إثباتها غير سبيل بعض الحنابلة ، ولذلك كانت الحرب بينهم وبين الجمهور من أتباع أبي الحسن الأشعري .

وقـد تلقى ابن تيمية الحنبـلي طريقـة الحنابلة الذين ناوءوا المـذهب الأشعري ؛ ولذلك كانت مناضلات له من بعد في هذا البسبيل ، ونـزلت به محن ، وكادت نفسه تذهب في هذا الأمر .

●● بلغ في العلم أشدَّه :

اتسعت آفاق دراسة ابن تيمية ، وكانت دراساته مستوعبه في الفقه والحديث والعقائد ، وعلوم العربية ، وكان له اطلاع على العلوم الرياضية والفلسفية ، ودراساته المقارنة تدل على معرفته لآراء الفلاسفة . . ولمّا شب أحمد عن الطوق وامتلأ قلبه بالمعرفة ، واستوى رجلاً سوياً جلس في مجلس الدرس بعد أبيه ،إذ أبوه قد مات سنة ٦٨٢هـ فتـولى من بعده ابنـه أحمد حلقـة درسه وهـو في الحـاديـة والعشـرين ، فتقدمه بما تغذى به من معارف السابقين ، وقد أثمرت في قلبه أيْنع الثمار وأغزرها وأنضجها ، وتقدم واثقاً بمعونة ربّه ، ليؤدي الأمانة التي حملها . وتقدم بعلمه ودراساته واستعداده لتلقي المعارف من كل ناحية ،

فألقى دروسه في الجامع الكبير بلسان عربي مبين، فاتجهت إليه الأنظار، واستمعت إليه أفئدة سامعيه، وانتقل كثيرون من المستمعين إلى مريدين متحمسين معجبين، فصار له من بينهم مخلصون إخلاص الحواريين، **وكانت دورسه تجمع الموافق له والمخالف**، والبدعي والسني، ومعتنق مذهب الشيعة، ومن هو مع الجماعة، وكانت غزارة علمه تبدو على لسانه، حتى إن ابن دقيق العيد الفقيه المحدث يلقاه، وهو أكبر منه سناً، فيقول فيه «رأيت رجلاً جمع الله العلوم كلها بين عينيه يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريد».

●● كان يقهر الحدّة بالحلم . .

وكان مع هذا العلم له شخصية قوية نفاذة، ولا يخلو من حدة، وقد وصفه الذهبي الذي عاصره، فقال:

«**كان أبيض أسود الرأس واللحية، شعره إلى شحمة أذنيه، كأن عينيه لساناً ناطقاً، ربعة من الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهوري الصوت، فصيحاً سريع القراءة، تعتريه حدة، لكن يقهرها بالحلم**».

وقد اختلف أهل العلم منذ سَمِعُوه، ما بين موافق له متحمس لما يقول يشايعه ويناصره، وفريق يقاومه وينازله، لأنه هجم بفكر لم يألفوه، وفريق ثالث يوافقه في بعض قوله، ويخالفه في آخر، وهو في حاليه معجب به مقدر لعلمه وشخصه، ومن هذا الفريق الذهبي المؤرخ العظيم.

كانت دروس هذا الشاب لها دويّ، لأنه غذاها بفكر مستقل يتبع السلف ولا يقلد، وقاها بحجج رآها قوية، أدلى بها ببيان قوي غذّاه بالعاطفة والفكرة معاً، فانقسم الناس فيه ذلك الانقسام الذي بدت ظواهره في خلاف عنيف، أو وفاق معه اتباع، أو أخذ بعض قوله، وترك الآخر من غير لدد في خصومة.

•• كان عدوًّا للصّوفية . .

وإن الرجل الذي ليس له مخالف لا يمكن أن يكون قوياً، فكانت المخالفة ترجع إلى قوة قوله في الكثير الغالب، وإلى حدة في نفسه في غير الغالب، ولكن المخالفة لا تكون نتيجة للحدة فقط بل لا بد أن يكون قد أتى الناس بغير ما كان شائعاً عندهم، ولعل حدته سببها عنف المعارضة، ورميه بالكفر والإلحاد في دين الله تعالى.

ولقد هاجم في دروسه الطرق الصوفية التي كانت شائعة في عصره، وقد اقترنت بها شعوذة وفساد أحياناً، وكان من المتصوفة مَنْ مالأ التتار عندما ساروا إلى دمشق، ثم عِنْدَمَا دخلوها، فكان لا بد أن ينالهم بمعرَّة لسانه، وقد كان يعمم في قوله، ولا يخصص، فصار له أعداء من أتباعهم أو مريديهم.

ولم يكتف بما يلقي في حلقة دروسه، وما يلقيه على العامة في الجامع الكبير إذ قد قسم دروسه إلى قسمين: أحدهما للخاصة يذاكرهم الحقائق التي انتهى إلى وجوب تقريرها، وقسم للعامة يعظ فيه ويرشد، ولكنه مع ذلك أضاف إليه رسائل كان يكتبها، ويجيب بها عن الأسئلة توجه إليه من المستفهم الطالب للحقيقة فَيُبَيِّنُ له، ومن المخالف المعترض لما يقول، فيرسل إليه يؤيد قوله في عنف وحدة، وقول بليغ محكم، ويشيع أقواله بالرسائل والإجابات، كما شاعت بالدرس والإلقاء.

•• ابن كثير يتحدث عن شيخه:

ومن هنا ابتدأت المعركة بينه وبين معاصريه، ويذكر المؤرخون أن

أهل حماة أرسلوا إليه يسألونه عما حكى الله تعالى به عن نفسه من أنه «على العرش استوى» ومن أن كرسيه وسع السموات والأرض وغير ذلك، فأجابهم بالرسالة الحموية التي يقرر فيها أنه لا يؤول، بل يقرر أن لله استواء لا نَعْلمه، وكرسياً لا نعلمه، وهو ليس من استواء الحوادث، ولا كرسي الحوادث، وكذلك كان قوله في كل الآيات والأحاديث التي تذكر أن لله وجهاً أو يداً. وبين هذا كله في رسالته الحموية هذه، وذلك يخالف بعض مذهب أبي الحسن الأشعري الذي كان شائعاً، والذي يتعصب له الولاة والرعية، ثم يتصدى حينئذ لمناقشته الكثيرون. وإنهم ليسوا في قوة حجته. وإن كان رأيهم أشد استمساكاً بأسباب التنزيه.

ولذا يشكونه إلى القاضي الحنفي. وبذلك تنتقل المناقشة بالحسنى إلى محاولة الاساءة. ولنترك الكلمة للحافظ ابن كثير تلميذه، فقد قال في تاريخه في حوادث سنة ٦٩٨ هـ «قام عليه جماعة، وأرادوا إحضاره إلى مجلس القاضي جلال الدين الحنفي فلم يحضر، فنودي في البلدة في العقيدة التي كان قد سأله عن سائلها أهل حماة المسماة بالحموية، وأرسل فطلب الذين قاموا عنده، فاختفى كثيرون منهم، وضرب جماعة ممن نادوا على العقيدة فسكت الباقون، فلما كان يوم الجمعة ذهب الشيخ تقي الدين إلى الميعاد بالجامع على عادته، وفسّر قوله تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾، ثم اجتمع بالقاضي إمام الدين الشافعي يوم السبت، واجتمع عنده جماعة من الفضلاء، وبحثوا في الحموية وناقشوه في أماكن فيها، فأجاب عنها بما أسكتهم بعد كلام كثير، ثم ذهب الشيخ تقي الدين، وقد تمهدت الأمور. وسكنت الأحوال وكان القاضي إمام الدين في معتقده حسناً وفي مقصده صالحاً».

●● ابن تيمية وبداية عصر المحن:

علا مركز ابن تيمية بعد أن خرج من محراب العلم إلى العمل في الحرب لحماية الإسلام والمسلمين من العيث في الأرض فساداً، عَلاَ في نظر الناس، وَعَلاَ في نظر: «**ناصر الدين قلاوون**» الذي قاد هذه الجحافل لوقف خطر التتار. وقد انتصر في آخر معركة بين العرب والتتار، وقد تحوّلت المعارك من بعد إلى مكان آخر.

وقد صارت منزلته في الدولة بحيث يستشار في المناصب الدينية، فهو الذي أشار بتعيين الشيخ كمال الدين الشريشي في مشيخة دار الحديث الكاملية بعد تقي الدين بن دقيق العيد، وصار هو الذي كان لا يعين خطيب أو واعظ، أو رئيس مدرسة دينية إلاّ برأيه، ولم يقف الأمر عند ذلك السلطان الأدبي، بل تجاوزه إلى أنه كان يقيم بعض التعذيرات بأمر السلطان أو بتفويض مطلق منه، وذلك إذا كانت الجريمة تتصل بأمر عام.

وقد أثارت هذه المنزلة حفيظة العلماء، لأن ما قرره من مسائل في أصول الدين تغاير ما يألفون وما يتبعون. وقد أثار أيضاً حفيظة الصوفية، سواء أكانوا معتدلين أم كانوا مغالين، لأنه أخذ يطعن في آراء محي الدين بن عربي، الذي قد اتخذه أكثر الصوفية إماماً يُتبَّع.

ومع هذه الإثارة بالفكر والرأي، ومع الحسد الشديد لمنزلته كان في لِسانه حِدَّة كما ذكر، فكان يجري على لسانه ألفاظ عنيفة يوجهها لمن يخالفونه، وفيهم علماء ذوو أسنان، ولم يكن هو في مثل سنهم، ومنهم من كان يعدّ من شيوخه فكان يكبر ذلك عليهم وعلى تلاميذهم، ومن اتصلوا بهم، وله فيهم حسن ظن وتقدير.

●● أثر القول في شأن ابن تيمية:

لقد اتجه العلماء بسبب كل هذا يشكون ابن تيمية إلى الأمراء في مصر.

ويذكرونَهُ بما يكره، ومنهم من لم يعرف فضله كاملاً إذ كان هو بالشام.

وكان التدبير الخفي وذكره بالمروق، والخروج على عقيدة الأشعري التي كانت مقدسة عندهم بمصر، وكان السلطان الناصر الذي كان يبالغ في تقديره ويعرف له فضله قد أخذ سلطانه يضعف، وخرج عليه القواد، واستهانوا بأوامره.

وبمقدار ضعف السلطان كانت قوة التدبير وأثر القول في شأن ابن تيمية، وقد عقدت المجالس المؤلفة من الحاقدين والحاسدين والناقمين، ثم المخالفين الذين لا يعتقدون فيه، وكانت تلك المجالس تنظر في أمره. والطريق للنيل منه، ومنعه من الاسترسال في دعوته.

وانتهى الأمر بدعوته، فجاء إلى مصر وكان الطلب بكتاب ظاهِرُهُ الخير، فكان في عبارات الكتاب: «إنا كنا سمعنا أنه يعقد مجلس للشيخ تقي الدين بن تيمية، وقد بلغنا ما عقد له من المجالس، وأنه على مذهب السلف، وإنما أردنا بذلك براءة ساحته مما نسب إليه، ثم يعقب ذلك الكتاب الرقيق كتاب آخر في طلب أن يتوجه على البريد إلى مصر».

كان الشيخ رضي الله عنه، يواجه الأمور، ولا يختفي من ملاقاتها، ولذلك اعتزم المجيء إلى مصر، ولكن نائب السلطان في دمشق قد أوتي علماً بما يبيت له في مصر، فنهاه عن الذهاب، ولكنه أبى، لأن في ذهابه

إلى مصر نفعاً للعامة ونشراً لآرائه، حتى ولو ناله في ذلك الأذى الشديد.

●● أولى المحن:

وصل الشيخ إلى مصر سنة ٧٠٥ من الهجرة، وكان يعقد المجالس لدروسه في الطريق، وبينما هو يعظ ويدرس كان خصومه في مصر يستعدون لاستقباله بتدبير ما ينزلونه به، فلما جاء إليها التقوا به في مجلس عقد بالقلعة، اجتمع فيه القضاة، وأكابر الدولة، وأراد أن يتكلم، فلم يمكنوه لما يعرفون من قوة بيانه، وموقع كلامه، وجابهوه بالاتهام، **وتولى الادعاء عليه زين الدين بن مخلوف قاضي المالكية**، فادَّعى عليه أنه يقول: «إن الله فوق العرش حقيقة» وأنه يتكلم بحرف وصوت، فأخذ الشيخ في حَمْدِ الله والثناء عليه فقيل له: أجب ولا تخطب فعلم أنها المحاكمة، وليست المناظرة.

●● كيف تحكم فيّ وأنت خصمي؟!

فقال الشيخ من الحاكم في أمره؟ فقيل له القاضي المالكي، فقال له الشيخ كيف تحكم فيّ وأنت خصمي؟، فغضب القاضي غضباً شديداً وانزعج، وحبس الشيخ رحمه الله.

وذهب ابن تيمية إلى الحبس، وشاركه في محبسه أخواه شرف الدين ومجد الدين اللذان حضرا معه إلى مصر.

وكان ابن تيمية محقّا في امتناعه عن أن يكون القاضي المالكي حكمه، فقد كان فيه غلظة وقسوة، إذ قد حكم من قبل بالإعدام على عالم اتهم بأنه يستهزىء بالآيات المحكمات من القرآن، ويناقض المشتبهات بعضها ببعض، مع أن البينات لم تكن كافية، وكان له فضل ظاهر وفضيلة واضحة، ورأى العلماء فيه حسن، حتى إنه لما استغاث بابن دقيق العيد شيخ علماء الحديث في عصره، قال له ما تعرف مني؟

قال «**أعرف منك الفضيلة**» ولكن حكمه كان إلى القاضي زين الدين المذكور، ولم تشفع تلك الشهادة الطيبة، ولم يستتب، فلم يخفف عنه حكم الإعدام.

●●الاتهام والقضاء عملان متباينان:

فكان الشيخ أريباً إذ لم يقبل أن يكون هذا القاضي قاضيه، وفوق ذلك هو يناقضه في تفكيره. وقد عاجله بالاتهام. وليس من المعقول أن يتهم الشخص ويقضي، لأن الاتهام والقضاء عملان متباينان. فالمتهم يسرد الأدلة المسوغة للعقاب ويقيم الأدلة عليها. ومن اتهم يقدم الأدلة المنافية المبطلة للاتهام. ومنع المتهم من أن يدلي بحجته.

ولقد نزل الشيخ السجن في رمضان سنة ٧٠٥ هـ وصحب نزوله أذى شديدا نزل بالحنابلة في مصر، ولم يستطعْ القاضي الحنبلي الذي كان القاضي الرابع في مجلس القضاة الذي يمثل فيه المذاهب الأربعة. أن يدافع عن ابن تيمية، ولا عَنْ الحنابلة، فقد كان ضعيفاً، وقد قال فيه ابن كثير: «حصل للحنابلة بالديار المصرية إهانة، ومن ذلك أن قاضيهم كان قليل العلم مزجي البضاعة، فلذلك نال أصحابه ما نالهم، وساءت وتدهورت أحوالهم».

●● كيف خرج الشيخ من السجن؟!

مكث الشيخ في غياهب السجن سنة وفي نهايتها في ليلة عيد الفطر تحركت ضمائر لإخراجه، فجمع حاكم القاهرة القضاة الثلاثة: **الحنفي، والمالكي، والشافعي، وبعض الفقهاء**، وتكلم معهم في إخراج الشيخ من السجن، وإطلاق حريته، فقد وجد ذلك الأخير أن بقاء الشيخ في السجن لا يتفق مع الدين ولا العدل، ولا الخلق،

وهو الذي قاد الجموع، وحرك الجيوش، وتقدم للموت، وكان روح المقاومة العنيفة التي انتهت بالانتصار على التتار.

●● تفرقوا غير مأجورين . .

ومع أن الفقهاء والقضاة لم تكن عندهم تلك الأريحية الكريمة التي كان عليها ذلك الأمير، لم يقاوموا أمر إخراجه، لأن من يكون على شاكلتهم يعملون على إرضاء الأمراء أو على الأقل لا يغاضبونهم، ولكن بعضهم قيّد الموافقة بشروط اشتراطها، منها أن يُعْلن الشيخ رجوعه عن بعض ما يعلن من آراء في أصول الدين، فوافقوا على ذلك. ، وأرسلوا إلى الشيخ ليحضر. فامتنع لأنه يعلم أنهم ليسوا طلاب حقيقة، ولا حجة، وأنهم يريدون أن يفرضوا عليه رأياً لم يُقَدِّمُوا عليه ـ في نظره ـ دليلاً، وتكررت الرسالة إليه حتى بلغت ست مرات، فتفرقوا. **ويقول ابن كثير «تفرقوا غير مأجورين»**.

وفي الوقت الذي كان فيه الشيخ في غيابة السجن كان أصحابه بالشام في ألم، ولعل آلام أهل الشام هي التي كانت تجعل أمراء مصر يفكرون في إخراجه، والعلماء يشترطون ما يعلمون أنه لا يمكن أن يجيبه.

وبعد المحاولة التي سبقت جاءت محاولة أخرى، وهي إحضار أخويه ليتكلما باسمه، فجاء إلى مجلس القضاة، وأخذ يتناقش شرف الدين أخوه مع القاضي المالكي زين الدين بن مخلوف، حتى ظهر عليه أخو الشيخ بالحجة.

ويقول في ذلك ابن كثير: «يظهر شرف الدين بالحجة على القاضي المالكي بالنقل والدليل والمعرفة، وخطأه في مواضع ادعى فيها دعاوى باطلة، وكان الكلام في مسألة العرش، ومسألة الكلام، ومسألة النزول».

كانت هذه المناقشة والشيخ في مجلسه لا يريم - سبباً في أن خرج الشيخ في محبسه في ٢٣ من ربيع الأول سنة ٧٠٧هـ بعد أن مكث في السجن نحو ثمانية عشر شهراً.

●● أحب الخير لكل المسلمين:

خرج الشيخ من السجن، وانصرف إلى الدرس، فأخذ يدرس للعامة والخاصة في المساجد، ويخطب على المنابر ومكث على ذلك ستة أشهر حتى كان له في مصر محبون ومريدون كما كان له في الشام. أيضاً.

●● وهناك أمران تتجه إليهما الأنظار:

- **الأول**: الصفح الجميل عمن آذوه. وألقوه في السجن، وقد سجل ذلك في كتاب أرسله إلى دمشق جاء فيه: «تعلمون رضى الله عنكم أني لا أحب أن يؤذى من عموم المسلمين فضلاً عن أصحابنا بشيء أصلاً، لا ظاهراً ولا باطناً، ولا عندي عتب على أحد منهم، ولا لوم أصلاً، بل لهم عندي من الكرامة والإجلال والمحبة والتعظيم أضعاف ما كان، كل بحسبه، ولا يخلو الرجل، **إما أن يكون مجتهداً أو مخطئاً أو مذنباً فالأول مأجور مشكور، والثاني مع أجر على الاجتهاد معفو عنه، والثالث، فالله يغفر لنا وله ولسائر المؤمنين... لا أحب أن ينتصر** ممن أخذ بسبب كذبه عليّ، أو ظلمه أو عدوانه، فإني قد أحللت كل مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أريده لنفسي، والذين ظلموا أو كذبوا هم في حل من جهتي».

- **الثاني**: أنه بمجرد أن خرج من السجن أرادت أمه أن تكتحل عيناها برؤيته، ولكنه يريد أن يؤدي واجبه في مصر كما أداه في الشام.

وأن تكون عين أمه قارة مطمئنة فيكتب إليها كتاباً جاءت فيه العبارات الآتية:

●● ابن تيمية وخطاب مفتوح:

«من أحمد بن تيمية إلى الوالدة السعيدة، أقر الله عينيها بنعمه، وأسبغ عليها جزيل كرمه، وجعلها من إمائه وخدمه... نشكر الله على نعمه، ونسأله المزيد من فضله، ونعم الله كلما جاءت في نمو وازدياد، وأياديه جلت عن التعداد تعلمون أن مقامنا الساعة في هذه البلاد إنما هو لأمور ضرورية متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا، ولسنا والله مختارين للبعد عنكم، ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم، ولكن الغائب عذره معه. وأنتم والله لو اطلعتم على باطن الأمور فإنكم والله لا تختارون الساعة إلا ذلك... والمطلوب كثرة الدعاء بالخير، فإن الله تعالى يعلم ولا نعلم، ويقدر ولا نقدر، وهو علام الغيوب، وقال النبي ﷺ «من سعادة ابن آدم استخارته الله ورضاه بما يقسم الله له، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارته الله، وسخطه بما يقسم الله. والتاجر يكون مسافراً فيخاف ضياع ماله، فيحتاج أن يقيم حتى يستوفيه وما نحن فيه أمر يجلّ عن الوصف، ولا حول ولا قوة إلا بالله والسلام عليكم ورحمة الله كثيراً كثيراً، وعلى سائر من في البيت من الكبار والصغار والأهل والأصحاب واحداً واحداً، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم».

●● ابن تيمية والمحنة الثانية:

كانت إقامة ابن تيمية مهما تَطُلْ في مصر على نية العودة إلى الشام؛ ولكن الله تعالى اختارَ لَهُ إقامة أطول مما كان يقدّر، ولم يكن في

حسبانه، واختبره الله تعالى بامتحان جديد، وذلك الامتحان كان سببه في هذه المرة من غير الفقهاء والعلماء.

وقد كان بعض الصوفية في مصر يقولون إنهم إذا وصلوا إلى حال من التربية النفسية والتهذيب الروحي يتصلون بالذات العلية ويَعْلَوْن عن التكليف وما كان هذا ليرضي ابن تيمية، كما لم يرضه من قبل في الشام بعض الشعوذة التي كان يقوم بها بعض الرفاعيين من الصوفية، فتصدى لمهاجمة هذه الآراء، وفي سبيل مناهضتها لا بد أن يفند آراء محيى الدين بن عربي، فهاجمها، ولم تكن ثمة محاجزة بينه وبين أن يهاجم ابن عربي نفسه، ففعل بعقل مفكر، ولسان معبر، وقلب جريء.

●● معارك مع الصوفية:

تقدم ابن عطاء الله السَّكندري صاحب كتاب الحكم، وهو صوفي له مقامه عند الصوفية، ومن أتباع ابن عربي بالشكوى، وله مقامه عند العامة، وذهب الصوفية إلى القلعة يشكون مجتمعين، فأمر السلطان أن يُعْقد مجلس تحكيم بدار العدل، وحضر ابن تيمية وهو يشق الجموع، ثابت الجنان مع أنه قد قيل له إن الناس قد جمعوا له، فقال: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**». وتناقش مع الخصوم **يصدع** بالحجة الظاهرة وينطق بالمفهوم من غير تعقيد ولا تلبيس، فانتصر بإذن الله وتوفيقه.

وتكاثرت من بعد ذلك اجتماعات الصوفية، والشيخ لا يني عن مجابهتهم.

●● أحب إليّ:

ولقد ضاقت الدولة ذرعاً، وكثرت المجادلات، ولم تجد السبيل لإسكاتها، إلا بإسكات ذلك الضيف الذي أثارها، فخيّروه بين أمور ثلاثة: إما أن يذهب إلى الإسكندرية، وإما أن يذهب إلى دمشق موطنه، وإما الحبس، فاختار الحبس، لأنه كان مقيداً عند الذهاب إلى

دمشق أو الإسكندرية ألا يعلن ما يرى، فقال: «**السجن أحب إلي**»، فارتضاه دون تقييد الفكر واللسان، ولأنه رأى أن الحرية التي تملأ نفس العالم ليست هي حرية الانتقال من مكان إلى مكان، وإنما هي حرية الفكر وجولاته، ونشر تفكيره وآرائه، وأن الحر حقاً هو الذي يفهم حرية رأيه وفكره قبل أن يفهم حرية جسمه، وأن تنقله من مكان إلى مكان من غير أن يدلي بآرائه، يكون فيه كبت عقلي ونفسي له، ولا يحس بذلك في داخل السجن. ولكن تلاميذه أرادوه على أن يختار دمشق فركب خيل البريد في الثامن عشر من شوال سنة ٧٠٧هـ وما أن بدأ في السير حتى أَلْحَقُوا به من رَدَّهُ، وقالوا إن الدولة لا ترضى إلا بالحبس، وكأنهم شعروا أنه إذا ذَهب إلى دمشق، فسيكون بين أصحابه ويرد إليهم شروطهم التي أجبروه عليها.

●● القضاء يقدر الشيخ:

أعيد الشيخ إلى المحاكمة، وكان في القضاة في هذه المرة من يقدره حق قدره، إذ قد رأوه، ورأوا إخلاصه وإيمانه، ومهما تكن في آرائه من خروج عن المألوف المعروف، فقد كان شخصه مثالاً للتقى، وللتقوى أثرها في النفوس، فقد قرروا أنه ليس عليه شيء يسوغ الاتهام، وَكان بعضهم يعارض في الحبس، وتجادلوا في ذلك، فأنقذ ابن تيمية الموقف، وقال أنا أمضي إلى الحبس، فقال نور الدين الزواوي الذي كان يعارض في حبسه: يكون في موضع يصلح له.

فقيل له إن الدولة لا ترضى إلا بما يسمى الحبس.

●● لقد سجن بسبب قوة بيانه:

أرسل بعد هذا إلى حبس القضاة، وأذن له بأن يكون عنده من يخدمه.

كانت المعركة التي أدت إلى ذلك الحبس بين ابن تيمية والصوفية، ولم تكن بينه وبين الفقهاء، ولعل القضاة قد نظروا إليه في هذه المرة نظرة تقدير، فهو في نظرهم كان مدافعاً عن الإسلام، ولم يكن مهاجماً، فكان العطف عليه وذلك مع قوة بيانه..

ولقد كان الحبس غير مانع تلاميذه من أن يفدوا عليه ويروحوا.. ثم لم يلبث إلا قليلاً حتى خرج من محبسه بقرار من مجلس للقضاة والفقهاء عقد بالمدرسة الصالحية.

وبعد أن خرج أكب الناس على مجلس العلم الذي يعقده، ولا نرى أن هذه كانت محنة، وقد كان النصر فيها له على الصوفية.

●● أخبار فضله سَبَقَتْه:

وإنما المعركة الحقيقية كانت بعد ذلك عندما عزل السلطان ناصر قلاوون نفسه، وتولى الأمر من بعد ذلك الملك المظفر بيبرس الجاشنكير، وكان شيخ بيبرس هذا نصر المنجي من أتباع ابن عربي في آرائه ومنحاه، فقامت المعركة الشديدة، لتحكم نصر المنجى في تفكير بيبرس، ولأن ابن تيمية ينظر إليه على أنه من أنصار الناصر، ودبّر السلطان الجديد وشيخه الأمر، فوجد أن أنجح السبل للتخلص منه، أن ينفى إلى الإسكندرية إذ قد صار له أتباع في القاهرة، والفقهاء يناصرونه، وليس له في الإسكدرية ولّي ولا نصير، وقد رجوا أن يقتل فيها غيلة فيرتاحوا.

●● من آذاني فهو في حل من جهتي:

ولكن أخبار فضله سبقته إلى الإسكندرية، فالعلم نور يصل

شعاعه إلى كل مكان ما لم تحجبه الظلمات، وكان سفره إلى الإسكندرية في الليلة الأخيرة من شهر صفر سنة ٧٠٩ هـ وأخذ يعقد المجالس للدرس والوعظ والتوجيه، ومكث على ذلك سبعة أشهر، أي إلى الوقت الذي عاد فيه الناصر قلاوون إلى الحكم بعد الاعتزال، وفي هذه الأشهر السبعة، وجد خصماً يناضله، فقد اتفق أن وجد في الإسكندرية فرقة من الصوفية تسمى السبعينية تنسب لرجل صوفي اسمه ابن سبعين، وينهج منهاجاً يجمع بين الفلسفة والتصوف فقد كان هو فيلسوفاً صوفياً.

ثم عاد الشيخ إلى القاهرة مكرماً بعد أن جلس الناصر على عرش مصر، فدعاه هذا إليها، فوصل في اليوم الثامن من شوال سنة ٧٠٩ هـ واتخذ مقره على مقربة من المشهد الحسيني، وانصرف إلى العلم انصرافاً مطلقاً، وجاء إليه الذين أساؤوا إليه يعتذرون. فقال في كلمة لا استثناء فيها: **«من آذاني فهو في حل من جهتي»**.

●● يطالب بالعفو عن أعدائه:

وهنا نجد من الواجب علينا أن نذكر موقفاً كريماً لابن تيمية، ذلك أن الناصر لما استقربه الأمر أراد أن ينتقم من العلماء والقضاة الذين مالئوا خصمه عليه، وهم أنفسهم الذين حكموا عليه بالحبس في المحنة الأولى، وقد مكث ثمانية عشر شهراً بسببهم في السجن، فاستفتى في ذلك ابن تيمية، فأفتى الإمام التقي بأن دماءهم حرام عليه، وأنه لا يحل إنزال الأذى بهم، فقال له السلطان إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مراراً، فقال الشيخ الكريم: **«من آذاني فهو في حل ومن آذى الله ورسوله، فالله ينتقم منه، ولا أنتصر لنفسي»** ولم يكتف الشيخ الطيب بذلك، بل

طالب بالعفو عنهم، وأخذ يخاطبه في العفو ويقول له: «**إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم**»، وما زال به حتى عفا عنهم.

فعل ابن تيمية ذلك وفيهم ابن مخلوف الذي كان شديد الوطأة على ابن تيمية، والذي منعه من الدفاع عن نفسه، وألقى به في غياهب السجن من غير محاكمة، ولم يسع ذلك القاضي إلا أن ينطق بالثناء على ابن تيمية ويقول: «**ما رأينا مثل ابن تيمية، حرضنا عليه فلم نقدر، وقدر علينا فصفح عنّا**».

في هذه المرة من المجيء إلى القاهرة نوى الإقامة بها، والاستقرار فيها، ولذا أرسل يطلب بعض كتبه، وانصرف إلى الدرس والإفتاء والوعظ والإرشاد، ولم يحاول أحد من العلماء أن ينال من علمه علناً، وكذلك كبار الصوفية لم يستطيعوا أن يطعنوا في آرائه، لا لأنهم يؤمنون بقوله، ولا لأنهم يخشون الله، ولكن لأنهم يخشون السلطان.

ولذلك أخذ خصومه من الفقهاء والصوفية يكيدون بطريق آخر، وهو تحريض العامة عليه، فحرضوهم وحرشوهم به، ولكنهم نسوا أنه قد اكتسب ببلاغته وقوة حجته وشخصيته أنصاراً أكثر من أنصارهم.

●● حدثان هامان في حياة الشيخ:

ـ **أحدهما**: أنه في الرابع من رجب ٧١١هـ قد انفرد به جماعة بتحريض خصومه. فامتدت أيديهم الأثيمة إليه بالضرب، فتجمع أهالي الحسينية ليثأروا للشيخ، ولكنهم ألحوا عليه في أن يأذن لهم، ويكثروا من القول، فقال لهم: «**إما أن يكون الحق لي أو لكم أو لله، فإن كان الحق لي فهم في حل منه، وإن كان لكم فإن لم تسمعوا مني فافعلوا ما شئتم، وإن كان لله الحق، فالله يأخذ حقه إن شاء الله**».

ـ **الحادث الثاني**: أنه في هذا الشهر نفسه قد اعْتُدِيَ عليه بالقول المقذع، ولكنه في هذه المرة لم يكن من الجهال الأغمار، بل كان من بعض الفقهاء أساء إليه بهذا القول، ثم اعتذر إليه، ولعل اعتذاره كان سببه الخوف من السلطان لمكانته عنده، ولكن الشيخ على أي حال صفح وقال: «**لا أنتصر لنفسي**».

●● لا يولي أحد بمال أو برشوة:

وفي هذه المدة التي أقام فيها بالقاهرة كان يشير على السلطان بما يرى فيه، ومن ذلك أنه كثرت الرشوة في الولاية وغيرها فما زال ابن تيمية بالناصر حتى كتب كتاباً يشدد فيه النكير على ذلك، جاء فيه: «**لا يولي أحد بمال ولا برشوة، فإن ذلك يفضي إلى ولاية غير الأهل**» وكانت أمور القصاص فوضى فشاعت جريمة الأخذ بالثأر فشدد السلطان في تتبع ذلك. وعالجه بأن يكون القصاص عاجلاً، وألَّا يكون إلا بحكم الشرع الشريف.

●● الأئمة الأربعة أشد إعظاماً:

استمر الشيخ على الإفتاء في مسائل الطلاق، وترامى إلى السلطان خبر عودته، ومع أن السلطان هو صديق ابن تيمية، وهو الذي لم يرتض أن يبقى في الحبس يوماً واحداً بعد عودته إلى الحكم، لم يقبل أن يرد أمره، وقد أصدرها جهراً من غير إخفاء، وضمير السلطان لم يرتض قولاً يخالف الأئمة الأربعة، فإذا كان ابن تيمية معظماً عنده، فإن الأئمة الأربعة أشد تعظيماً.

ولذلك أرسل في التاسع عشر من رمضان سنة ٧١٩هـ كتاباً فيه

فصل خاص بالشيخ يؤكد فيه المنع، وقرىء عليه الكتاب في جمع من القضاة والفقهاء والمفتين، وعوتب على امتناعه، وافترق المجلس من غير أن يعطي الشيخ عهداً بالامتناع عن الإفتاء ولذا استمر، وقد تكرر الإرسال، وتكرر العتب، وما كان للسلطان أن يغضي من بعد ذلك، وإن أغضى فإن القضاة والمفتين لن يغضوا، وهم يرون فيما يفتي به الشيخ مخالفة لإجماع الأئمة الأربعة، فيكون ضلالاً بيناً.

ولهذا انعقد مجلس بدار الحكم بحضرة نائب السلطنة حضره القضاة والفقهاء والمفتون من المذاهب الأربعة، وحضر الشيخ وعاتبوه، ورجوه ألا يعود إلى الإفتاء في هذه المسائل، وكانوا حريصين على عتابه دون جداله، ولما تكرر العتب والرجاء من غير أن يمتنع قرروا حبسه في القلعة بدمشق، واستمر محبوساً خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً تبتدىء من يوم ٢٢ من رجب سنة ٧٢٠ هـ وكان الإفراج عنه في العاشر من المحرم سنة ٧٢١هـ.

وقد عاد الشيخ بعد ذلك إلى درسه حراً طليقاً، فأخذ يفتي في هذه المسائل وغيرها، وبتكرار ذلك منه أَلِفُوه، وإن لم يَرْضَوْهُ، واستمر يبحث ويكتب ويصنّف، وتعد هذه الفترة من حياته التي تبتدىء من سنة ٧١٢هـ هي الفترة التي أنتج فيها ذلك الإنتاج الفقهي العظيم. وإن كان يدرِّس مع ذلك العقائد وموقف الصوفية، وما يظهرونه من بدع، ولكن الحظ الأكبر كان للفقه.

●● زيارة قبور الصالحين وآخر:

استمر الشيخ في دروسه، وقد أخذ يراجع كتبه ورسائله، سواء أكانت في العقائد أم كانت في السياسة، أم كانت في الفقه، ويفيض

بعقله الخصب ونفسه الفياضة على سامعيه، حتى جاءت سنة ٧٢٦هـ فأمر بالانتقال إلى القلعة، ونذكر ببعض التفصيل سبب ذلك، وذلك لأن الذين يتربصون به الدوائر إما لحسد بسبب ما ناله من منزلة عند الناس، وإما لخصومة في الفكر والرأي والاتجاه، كالصوفية والروافض، ومن الفقهاء من عاداه لأنه رأى فيه انحرافاً وخروجاً على الدين. واجتمعت كلمة هؤلاء وأولئك على الكيد للشيخ، فأخذوا يبحثون عن رأي له يغضب العامة والخاصة معاً، فوجدوا فتوى كان قد أفتاها منذ سبع عشرة سنة، وهي أنه يرى منع زيارة قبور الصالحين، بل منع زيارة الروضة الشريفة التي بها قبر الرسول ﷺ، وهذا بعض عبارات هذه الفتوى:

«في سنن سعيد بن منصور ان عبد الله بن حسين بن حسن بن علي بن أبي طالب رأى رجلاً يختلف إلى قبر النبي ﷺ فقال ناقلاً عن النبي ﷺ قوله: «لا تتخذوا قبري عيداً وصلوا علي. فإن صلاتكم حيثما كنتم تبلغني» فما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء، وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال في مرض موته: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر مما فعلوا، ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يتخذ مسجداً وهم دفنوه في حجرة من بيته. رضي الله عنها، على خلاف ما اعتادوه من الدفن في الصحراء، لئلا يصلي أحد عند قبره، ويتخذه مسجداً، فيتخذ قبره وثناً، وكان الصحابة والتابعون لما كانت الحجرة منفصلة عن المسجد إلى زمن الوليد بن عبد الملك لا يدخل أحد منهم إليه، لا لصلاة هناك، ولا لتمسح بالقبر، ولا دعاء هناك بل هذا جميعه إنما كانوا يفعلونه بالمسجد، وكان السلف الصالح إذا سلموا على النبي ﷺ وأردوا الدعاء دعوا مستقبلي القبلة، ولم يستقبلوا القبر، وأما الوقوف للسلام عليه صلوات الله

وسلامه، فقال أبو حنيفة يستقبل القبلة أيضاً، ولا يستقبل القبر، وقال أكثر الأئمة يستقبل القبر عند الدعاء».

●● من حرّف الكلم عن مواضعه:

لقد قيلت هذه الفتوى منذ مدة طويلة، ولم تتحرك فتن لأجلها، ولم يحاول أحد أن يتخذ منها سبيلاً للنكاية والأذى لمكانته عند السلطان إبان ذاك.

فلما كانت الجفوة بسبب الإفتاء في مسائل الطلاق انتهزوا تلك الفرصة، وحركوا السلطان والعامة عليه، إذ اتخذوها سبيلاً للتأثير في العامة لِمَا لِلنَّبي ﷺ من مكانة قدسية، فإن نفس المسلم سرعان ما تتحرك إن أتيت من قبل ما يمس شخص النبي ﷺ.

وقد كتب المؤتمرون للسلطان بذلك، وقيل فيها إنه حرف الكلم عن مواضعه، فرأى السلطان حبسه في محبس يليق بمثله، وجاء الأمر بذلك إلى دمشق في السابع من شعبان سنة ٧٢٦هـ وبلّغ إلى الشيخ وأحضروا له مركباً ونقل إلى قلعة دمشق، وأقام معه أخوه زين الدين يخدمه بإذن السلطان.

وما أن اعتقل الشيخ حتى تكشفت القلوب عن خبيئاتها، ونزل الأذى بتلاميذه وأوليائه، فأمر قاضي القضاة بحبس جماعة منهم، وغرر جماعة من أصحابه بإركابهم على الدواب والمناداة عليهم، ثم أطلقوهم بعد ذلك من محابسهم ما عدا صفيه وحامل اللواء من بعده: «**شمس الدين بن قيم الجوزية**».

لقد كان هذا الاعتقال إذن موضع ألم المخلصين، وموضع شماتة الحاسدين والمبتدعين على السواء.

●● احتمل الابتلاء بصبر وجلد:

بلغ الضيق بالشيخ أقصاه فمنع من الكتب والكتابة، ولم يتركوا عنده محبرة ولا قلماً، ولكن ذلك الفكر المتحرك الذي لا يني عن العمل لا يمكن أن يحتبس، ولذلك كان أحياناً يضطر إلى أن يقيد بعض آرائه وخواطره، فيقيدها بفحم على ورق متناثر، وقد جمع الورق المتناثر، وحفظه التاريخ على أنه من آثاره. ولقد احتمل ابن تيمية ذلك الابتلاء بصبر وجلد، وعلم أنه الجهاد العظيم، وقال في هذا: «**نحن والله في عظيم الجهاد في سبيله، بل جهادنا في هذا السبيل مثل جهادنا يوم قازان، والجبلية والجهمية، والاتحادية وأمثال ذلك، وذلك من أعظم نعم الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون**». وكان هذا الكلام مما كتب على الأوراق المنثورة.

لم يطل ذلك المحبس الضيق على ابن تيمية، فإن الله قد قبضه إليه في العشرين من شوال سنة ٧٢٨هـ بعد مرض نزل به، ولقد كان عظيماً في آخر أيامه، كما كان عظيماً طول حياته، فقد ذهب إليه وزير دمشق في مرضه يعتذر إليه، ويلتمس منه أن يحلله مما عساه يكون قد وقع منه من تقصير أو أذى فيجيبه: «إني قد أحللتك وجميع من عاداني، وهو لا يعلم أني على الحق، وأحللت السلطان المعظم الملك الناصر من حبسه إياي، لكونه قد فعل ذلك مقلداً معذوراً، ولم يفعله لحظ نفسه، وقد أحللت كل أحد مما كان بيني وبينه إلا من كان عدوًّا لله ورسوله».

●● ما قال فيهم إلا خيراً:

مات ابن تيمية فسكنت تلك الحركة الدائبة المستمرة، وأحس

أهل دمشق بوفاة عالمها، بل بعالم المسلمين، فخرجت جموعها محتشدة تودعه حتى مثواه الأخير، ولقد قدر الله لذلك العالم الحر العظيم أن يموت وليس لابن أنثى عليه من فضل، لقد توثقت العلاقة بينه وبين الناصر، حتى حكمه في رقاب العلماء الذين آذوه، فما قال فيهم إلا خيراً.

●● بعض صفاته:

اختص الله سبحانه وتعالى ذلك الرجل بصفات كانت هي البذرة التي نمت واستوت على سوقها، فكانت ذلك العالم الجليل، وما نمت إلاّ بما سُقِيَتْ من ماء، وما تهيأ لها من جو، وتربة صالحة، وذلك بالدراسة العميقة والعصر الذي عاشت فيه.

وأولى هذه الصفات حافظة واعية، وهي أساس العلم، وبمقدارها ومقدار القدرة على استخدامها يكون قدره وسط العلماء، وقد بدت هذه الصفة في صدر حياته، واستمرت ملازمة له حتى وفاته.

والصفة الثانية: من صفات ابن تيمية العمق في التفكير، فقد كان رضي الله عنه يدرس المسائل متعمقاً، وكان يدرس الآيات والأحاديث وقضايا العقل، ويوازن ويقايس بفكر مستقيم حتى ينبلج له الحق واضحاً، فلم يكن رضي الله عنه حافظاً واعياً فقط؛ بل كان مدْركاً متأملاً مستنبطاً فاحصاً، يردد البصر، ويسبر غور المسائل، حتى يصل فيها إلى نتائج محققة، وما يصل إليه تدهش له العقول، ويحيّر الخصوم.

والصفة الثالثة: حضور البديهة، فقد كان مع قوة حافظته[1]

(١) يراجع كتاب ابن تيمية للامام أبو زهرة.. في الجزء الخاص بـ:«صفات ابن تيمية».

وتعمقه في الدراسة حاضر البديهة تخرج إليه المعاني من مكانها سريعة كالجندي السريع يجيب أول نداء، وكان يبدو ذلك في دروسه، فإرسال المعاني تجيء إليه من غير إجهاد وعند المناظرة يفحم الخصوم بكثرة ما يحفظ، وبحضور ما يحفظ.

والبديهة الحاضرة بالنسبة للخطيب والمناظر كأدوات الحرب السريعة للمقاتل تصيب المقاتل، وتقطع مفاصل القول وتربك الخصم.

●● من أحرص الناس على الكتاب والسنة:

ولهذه الصفة كان خصوم ابن تيمية يتهيبون لقاءه، ومن لا يعرفها فيه ويغتر بحجته إذا لقيه يكون عبرة المعتبرين.

والصفة الرابعة: الاستقلال الفكري، ولعل هذه الصفة أبرز الصفات في تكون علمه وشخصيته العلمية التي جعلت له مزايا خاصة ليست في غيره من العلماء الذين عاصروه. ولقد قال في استقلاله الفكري أحد تلاميذه:

«كان إذا وَضُحَ له الحق عضّ عليه بالنواجذ، والله ما رأيت أحداً أشد تعظيماً لرسول الله ﷺ، ولا أحرص على اتباعه ونصر ما جاء به منه، حتى كان إذا أورد شيئاً من حديثه في مسألة، ويرى أنه لم ينسخه شيء غيره من حديث، يعمل ويقضي ويفتي بمقتضاه، ولا يلتفت إلى قول غيره من المخلوقين كائناً من كان، لا يخاف في ذلك أميراً ولا سلطاناً ولا سيفاً، ولا يرجع عن الكتاب والسنة لقول أحد، وهو متمسك بالعروة الوثقى.

●● الإخلاص أساس الاستقامة:

والصفة الخامسة: الإخلاص في طلب الحق، والطهارة من أدران الهوى والغرض في طلب الدين وكشفه للناس، والإخلاص يُقذف في قلب المؤمن بنور الحقيقة، ويجعله يدرك الأمور إدراكاً مستقيماً، وهناك حكمة تقول: إن الاتجاه المستقيم المخلص يجعل الفكر مستقيماً والعمل مستقيماً والقول مستقيماً.

●● وقد تجلّى إخلاص ابن تيمية في أمور أربعة:

أولها: أنه كان يجابه العلماء بما يوحيه إليه فكره، لا يهمه إلا رضا الله سبحانه ونصرة الحق، وسواء عليه أرضي الناس أم سخطوا.

والأمر الثاني: الذي أظهر إخلاصه وتفانيه في الحق جهاده في سبيله ولو كان بالسيف يحمله، وقد كان يتحمل البلاء الشديد في سبيل إعلان رأيه، وقد تحمل في هذا السبيل السجن المستمر من أعدائه وأصدقائه على سواء.

والأمر الثالث: الذي أظهر إخلاصه وبعده وتنزهه عن الأغراض والأهواء هو عفوه عمن يسيء إليه، عفا عن العلماء الذين سجنوه، . وقد تمكن من رقابهم، وأخيراً عفا عمن يسيء إليه وعمن ضيقوا عليه في آخر حياته، حتى مات في محبسه.

الأمر الرابع: الذي بدا فيه إخلاصه زهده عن المناصب، وكل زخرف الدنيا وزينتها فلم يتول منصباً، ولم ينازع أحداً في رياسة، بل رضي أن يكون المدرس الواعظ الباحث، فلم يطلب رياسة يتنافس فيها

المتنافسون، ولذا كان متصلاً بالله ولا يرجو النجاة إلا من الله تعالى وقد نجاه. **وقد قال الذهبي في ذلك:**

«وكم من نوبة قد رموه فيها عن قوسٍ واحدة فينجيه الله تعالى، فإنه دائم الابتهال، كثير الاستغاثة، قوي التوكل، ثابت الجأش، له أوراد وأذكار يديمها».

الصفة السادسة: فصاحته وقدرته البيانية، فقد كان رحمه الله خطيباً وكاتباً جمع الله سبحانه وتعالى إلى فصاحة اللسان والقلم، ويظهر أن هذه الموهبة وراثية في أسرته، فقد كان أبوه متكلماً مجيداً، وقد قوَّى تلك الملكة البيانية كثرة قراءته للقرآن وترديده للسنة النبوية وحفظه لها، فإن الكتاب والسنة أمداه بطائفة كبيرة من الألفاظ الجيدة المنتقاة، وفوق ذلك، فإن كثرة المعارك البيانية أرهفت قواه وعودته القول الارتجالي.

الصفة السابعة: الشجاعة، ومعها صفتان أخريان، **وهما الصبر وقوة الاحتمال**، فقد اتصف بالشجاعة في ميدان الحرب، وإدارة شؤون الدولة والقضاء على الفساد في مدة الفوضى التي أوجدها غزو التتار لمدينة دمشق الفيحاء، وبدت شجاعته الأدبية طول حياته، فتجرد للمخالفين، واتجه إلى السنة وأعلنها، ولو خالفت كل مألوف عند الناس، وكانت هي سبب بلائه، فلما نزل البلاء بدت فيه صفتان الصبر وقوة الاحتمال، أما الصبر فقد كان الصبر الجميل الذي لا يتبرم فيه ولا يتململ، وأما قوة الاحتمال فتتمثل في احتفاظه بكل مواهبه، وقد انقطع عن الناس نحو سنتين لم يهن ولم يضعف، ولم يحس بإرهاق، بل أحس بوجوب العمل فلم ينقطع. ثم كان له مع هذه الصفات هيبة يضطرب أمامها الخصوم.

•• فارس السيف والقلم:

عهد الناس على العلماء في عصر ابن تيمية شدة عكوفهم على العلم، حتى انحلت المقاعد أجسامهم، وتراخت عضلاتهم، وتقوست عظامهم، يرون قوة العالم كلها في فكره ورأسه، فهو من الأمة رأسها لا عضلاتها وقوتها البدنية.

هذا ما كان عليه العلماء في عصر ابن تيمية وقبله وبعده، ولذلك كانوا يفرون من التتار، كلما دخلوا بلداً يتركونه، فارين إلى أقرب مصرٍ. . .، فَفَرُّوا من بغداد إلى دمشق، ومن دمشق إلى القاهرة، ولكن عالماً من هؤلاء العلماء لم يرض هذه القاعدة؛ لأنه رأى السلف الصالحين من الصحابة كانوا علماء ومجاهدين ومدبرين لشؤون الدولة، فأبو بكر كان عالماً، ومدبراً، ومحارباً، وعمرو رضي الله عنه كان عالماً، وفقيهاً، وأعظم مدبر للدولة، وأعظم عادل رآه التاريخ بعد النبيين، أما عليّ فهو باب مدينة العلم، وأقضى الصحابة، وكان فارس الإسلام حقاً وصدقاً، كما قال فيه النبي ﷺ. كان الشيخ تقيّ الدين في درسه يلقي العلم، ويرقب الحوادث ومجرى الأمور، ويستعد للدخول في القتال.

لقد جاء التتار إلى دمشق سنة ٦٩٩ هـ ولم تكن حاميتها كافية لصد غاراتهم ففرت تلك الحامية إلى مصر، وفر معهم العلماء والقضاة وغيرهم من كبار الدولة حتى صار البلد شاغراً من علمائه وحكامه، وكان ذلك قبل دخولها.

•• ابن تيمية في مواجهة القائد الفاتك:

ولكن ابن تيمية أبى أن يفر، وأن يترك البلد فوضى، لأن له قلباً

يحول بينه وبين الفرار، وله إحساس يمنعه من أن يترك العامة من غير مواس في هذه المأساة، وقد رأى بعض الذين مالئوا التتار يلقون الخمر في المساجد، ويعلنون الفساد، وساد السلب والنهب فرأى التتار وغيرهم يخرجون من السجون ويعيثون في المدينة فساداً.

●● أبوك وجدك كانا كافرين:

ولقد جمع ابن تيمية أعيان المدينة الذين لم يتمكنوا من الفرار، واتفق معهم على ضبط الأمور، واتفقوا على أن يذهبوا إلى قازان قائد التتار وملكهم، **وكانوا قد دخلوا في الإسلام وكانوا في إسلامهم كالأعراب، لما يدخل الإيمان قلوبهم، وقازان رابع ملك مسلم فيهم.**

ذهب الشيخ على رأس الوفد والتقى بقازان القائد الفاتك الذي سارت بذكر فتكه الركبان، فقال الشاب العالم للمترجم: **«قل لقازان أنت تزعم أنك مسلم، ومعك قاض وشيخ ومؤذن على ما بلغنا، وأبوك وجدك كانا كافرين، وما عملا الذي عملت، عاهدَا فَوفّيا، وأنت عاهدت فغدرت. وقلت فما وفّيت وجرت»** أُخِذَ قائد الحرب من قول قائد العلم واضطرب، وازداد اضطرابه عندما قدم للوفد الطعام، فامتنع ابن تيمية عن الأكل، فقال له:

●● انقاد الطاغية.. للعالم التقيّ:

لم لا تأكل؟ فقال له: **«كيف آكل من طعامك؟ وكله مما نهبتم من أغنام الناس، وطبختموه مما قطعتم من أشجار الناس»** كان الشيخ يتكلم، وهو يحس بأن الله يؤيد دينه، ويرفع أمره، ويدافع عن خلقه، والله فوق كل جبار عنيد، لذلك لانت قناة قازان، لِمَا وقع في قلبه من

كلامه، حتى إنه يقول: «**إني لم أر مثله، ولا أثبت قلباً منه، ولا أوقع من حديثه في قلبي، ولا رأيتني أعظم انقياداً لأحد منه**». انقاد الطاغية العتي للعالم التقيّ، فأخذا يتحدثان في المقصد الذي جاء إليه، واستطاع الشيخ أن يؤجل غزو التتار لدمشق وهو يعلم أن التأخير سيعقبه من بعد ذلك الاستعداد للقتال، وحمل الشيخ «قازان» على أن يفك الأسرى الذين أسرهم، ففك القائد أسرى المسلمين. ولم يرد أن يفك وثاق الأسرى من أهل الذمة، من اليهود والنصارى، ولكن الشيخ عارضه وأبى أن يعود إلى دمشق إلا ومعه أسرى النصارى واليهود أيضاً، وصك أذن «قازان» بكلمة الإسلام: «**لهم ما لنا وعليهم ما علينا**».

●● ابن تيمية ودعوة للجهاد:

جاء التتار من بعد ذلك سنة ٧٠٢ هـ بجموعهم إلى الشام، واستعد الجيش الموحد، جيش مصر والشام لملاقاة التتار. وتحالف العلماء، والقضاة، والأمراء، على أن يلاقوا العدو، ولا يخرجوا من دمشق، مع أنّ دعاة التردد والهزيمة قد أخذوا ينشرون الفزع في قلوب الناس. دعا ابن تيمية إلى الجهاد، وكرر الدعوة، وما كان لمثله أن يدعو إلى الجهاد وينكص على عقبيه، فتقدم إلى الميدان حاملاً السيف، وقد سأله السلطان أن يقف معه في المعركة؟! فقال إمام السنة: «**السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم**».

وكانت الموقعة في رمضان فحث الجنود على الإفطار، وروى لهم قول النبي ﷺ في غزوة الفتح: **إنكم ملاقو العدوّ والفطر أقوى لكم**».

وقعت الواقعة، وانتصر الجيش الموحد، في موقعة كانت في مكان اسمه شقحب، وهو قريب من دمشق.

وقف ابن تيمية هو وأخواه موقف الموت، وأبلوا بلاء حسناً وكان النصر المبين.

هذا هو ابن تيمية الذي خرج من محراب العلم ليقاتل، ثم عاد إليه بعد أن أدى واجب الجهاد، وقد عاد إلى جهاد أعظم.

●● ابن تيمية يتفوق على عصره:

إن البذرة الطيبة لا تنمو إلا بسقي ورعي في أرض طيبة، وجو تتغذى منه وتعيش، ولذلك كان للعصر الذي عاش فيه ابن تيمية أثر واضح في اتجاهاته العلمية والعملية، وليس أثر العصر يتفق دائماً مع جنس العصر، فإن كان العصر فاسداً فسد الرجل، وإن كان صالحاً صلح الرجل وقد يكون التأثير عكسياً.

●● في ماضي الإسلام العزّ، وفي حاضره الذل والهوان:

وكذلك كانت المجاوبة بين ابن تيمية وعصره، تغذت روحه غذاءً صالحاً بما درس في صدر حياته، وما كانت عليه أسرته، ثم ما عكف عليه في شبابه وكهولته من رجوع إلى ينابيع الشرع الأولى والكنز الممتلىء من الهدي النبوي وما عليه سلف المؤمنين، ثم ما عليه أهل العصر الذي أظله، فكانت المعركة شديدة في نفسه بين ما علم وما يرى في عصره من ظلمة شديدة وفساد في كل نواحيه. رأى في ماضي الإسلام عزة واتحاداً، وفي حاضره ذلة وانقساماً. تقدم الرجل ليصلح وليداوي، وقد وجد الدواء بأيسر كلفة، **وجد هذه الأمة لا يصلح حاضرها إلا بما صلح به أولها. وما كانت آراؤه العلمية إلا دواء لأسقام عصره، ولو فتشت عن البواعث التي بعثت ذلك العالم التقي على المجاهرة بآراء معينة لوجدت أن الذي بعث على هذه المجاهرة عيب في**

الزمان، في الفكر أو في العمل أو فيهما معاً.

●● الحال السياسية:

وصل السوء في الحال السياسية إلى أَقْصَاه، وتحققت نبوءة النبي ﷺ في قوله: «**يوشك أن تتداعى عليكم الأمم تداعي الأكلة على قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله، قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكن غثاء كغثاء السيل، ولينزعن من صدور عدوكم المهابة، وليقذفن في قلوبكم الوهن، قال قائل: يا رسول الله وما الوهن، قال عليه السلام حب الدنيا وكراهية الموت**».

فكانت هذه الحال تنطبق على المسلمين في القرن السابع والثامن من الهجرة، كما كانت تنطبق على قرون من قبل ومن بعد، لقد انقسم المسلمون إلى دويلات، وحوزات ملوك ينظر بعضهم إلى بعض نظر العدو المفترس لا نظر المؤمن الموالي، ونظرة الملوك إلى رعاياهم نظرة الجبارين المسلطين، لا نظرة الراعي الذي يحمي رعيته من أن تقع في مواطن الردى.

●● ابن كثير يصف حال المسلمين:

● وإن خير وصف لحال المسلمين في عصر ابن تيمية وما قبله قاله الحافظ ابن كثير في تاريخه فقد قال:

«لقد بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبْتل بها أحد من الأمم، منها هؤلاء التتر، فمنهم من أقبلوا من المشرق ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها، ومنها خروج الفرنج لعَنَهُم الله من المغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر، وامتلاكهم ثغرها، أي دمياط، وأشرفت ديار مصر وغيرها على أن يملكوها، لولا لطف الله ونصره

عليهم، ومنها أن السيف مسلول، والفتنة قائمة.

هذه أنواع من المعاول أصابت الأمة الإسلامية. الصليبيون من الغـرب، والتتار من الشـرق، والثالثـة هي ثالثـة الأسافي في أن بـأس المسلمين بينهم شديد. لا تجمعهم وحدة الأسـلام، بل فـرقتهم أهواء الملوك، ومزقتهم الطوائف المنحرفة حتى صارت كأنها الأحزاب «وكل حزب بما لديهم فرحون».

●● ابن الأثير يرفض كتابة نعي المسلمين بيده:

وإن البلية التي أنست المسلمين كل أنواع البلاء هي غزوات التتار التي رأى ابن تيمية بعضها، وخاض غمار آخرها **ولنترك القلم للمؤرخ ابن الأثير فإنه يقول:**

«لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هـذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها، وهأنذا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، فمن ذا الذي يسهل عليه أن يكتب نعـي الإسلام والمسلمين، ومن ذا الذي يهون عليه ذكر ذلك، ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها، وأنا متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً فنقول: هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق، وخصت المسلمين، فلو قال قائل إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً.

فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها، ولا ما يدانيها، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلاَّ «**يأجوج ومأجوج**..» هؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال، والأطفال وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة، فإنا لله، وإنا إليه

راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها، وعم ضررها، وصارت في البلاد كالريح . إن قوماً خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد التركستان، ومنها إلى بلاد ما وراء النهر، فملكوها ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكاً وتخريباً وقتلاً ونهباً، ثم يتجاوزونها إلى الريّ وهمذان إلى حد العراق، ثم يقصدون بلاد أذربيجان ويخربونها، ويقتلون أكثر أهلها، ثم قصدوا بلاد قفجاق، وهم أكثر من الترك عدداً فقتلوا كل من وقف لهم. فهرب الباقون إلى الفيافي ورؤوس الجبال وفارقوا بلادهم، واستولى هؤلاء التتار عليها، فعلوا هذا في أسرع زمان، لم يلبثوا إلا بمقدار سيرهم لا غير، ومضى طائفة أخرى إلى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان، ففعلوا مثل ما فعل بهؤلاء وأشد من هذا مما لم يطرق الأسماع مثله . . ».

●● دخل التتار بغداد بأيسر كلفة :

هذا وصف موجز لحال هؤلاء التتار، وقد ملكوا أكثر البلاد الإسلامية وخربوها وقتلوا أكثر أهلها، حتى إذا جاءوا إلى بغداد كان الخلاف بين الشيعة والسنة على أشده، **ووزير الدولة عند الفتح كان شيعياً، وهو الوزير العلقمي، فقلل عدد الجيش، حتى دخل التتار بغداد بأيسر كلفة**، وساروا في طريقهم من بعد لا يلوون على شيء أتوا عليه إلا جعلوه كالرميم، وانسابوا في البلاد حتى دخلوا حلب بعد بغداد واستولوا على قلعتها، **واندس من النصارى من يخطب داعياً إلى المسيحية ذامًّا في الإسلام والمسلمين . . .** ووقفوا على المساجد، **ومعهم أوانٍ فيها خمر، فمن مرّ عليهم من رواد المسجد رشُّوا بها على وجوههم، وتجرد لهم المسلمون، فردوهم على أعقابهم . .**

وقد التقى الجيشان السوري والمصري، والتقيا مع التتار،

فهزموهم لأول مرة، وكانت الهزيمة مُنكرة، وأعملت السيوف في أقفيتهم، وحطمت صخرتهم، وصارت جذاذاً في عين جالوت، وكانت الواقعة في آخر رمضان سنة ٦٥٨ هـ أي قبل مولد ابن تيمية بسنتين وبعض السنة. وقد اضطر الحكام لفرض ضرائب لمقاومة ذلك الطغيان فجمع من أهل مصر عن كل رجل أو امرأة دينار، وأخذت أجور الأوقاف الخيرية قبل ميقاتها بشهر، **وقد أفتى بذلك عالم ذلك العصر عز الدين بن عبد السلام**، على أن ذلك من الضرورات والضرورات تبيح المحظورات.

هذه هي الحال السياسية؛ حرب ونزال، وقد بزغت عين ابن تيمية فوجد التتار يعيدون الكرة، وقد وجدوا الحمية الأولى التي ردتهم قد خبت، فبدت المحاولات ثانية وهيهات.... فجنود الإسلام لهم بالمرصاد...

●● الحال الاجتماعية:

قال المقريزي في وصف الحال الاجتماعية «لما كثرت وقائع التتار في بلاد المشرق والشمال، وبلاد القفجاق، وأسروا كثيراً منهم وباعوهم، واشترى الصالح نجم الدين أيوب جماعة منهم سماهم البحرية، ومنهم من ملك مصر، ثم كان لقطز معهم الموقعة المشهورة، وهزم التتار وأسر منهم خلقاً كثيراً، ساروا بمصر والشام وسموا الوافدية، ثم كثرت الوافدية في عهد الظاهر بيبرس، وملأوا مصر والشام، فانتشرت عاداتهم وطرائقهم، وكانوا كأنما ربوا بدار الإسلام، وأتقنوا القرآن، وعرفوا أحكام الملة المحمدية، فجمعوا بين الحق والباطل، وضموا الجيد إلى الرديء، وَفَوَّضُوا **لقاضي القضاة** كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج، وناطوا به أمر الأوقاف

والأيتام، وجعلوا له النظر في الأقضية الشرعية كتداعي الزوجين وأرباب الديون، واحتاجوا في ذات أنفسهم إلى الرجوع لجنكيزخان والاقتداء بحكم «**السياسا**» فلذلك نصبوا الحاجب ليقضي بينهم فيما اختلفوا فيه من عاداتهم، والأخذ على يد قويهم والإنصاف على وفق ما في «السياسا»، وكذلك كان يحاكم التجار الممتازون من الأهالي على مقتضى قواعد «**السياسا**»، وجعلوا للحاجب النظر في قضايا الديوان السلطانية عند الاختلاف في أمور الإقطاعات لينفذ ما استقرت عليه أوضاع «الديوان» هذاما جاء في المقريزي وهو يدل على ثلاثة أمور ـ **أولها**: أن كثرة الأسرى من الأتراك والتتار أدت إلى أن يكون لهم منزلة خاصة ومعاملة على أساس هذه المنزلة. ومن هؤلاء الأسرى من حكم مصر، كقطز والظاهر بيبرس ومن جاء بعد من ملوك دولة المماليك البحرية.

وثاني هذه الأمور: أن هؤلاء الوافدية كانوا في معاملاتهم الزوجية وعلاقاتهم بغيرهم من السكان كانوا يعاملون بمقتضى الأحكام الشرعية، وفي معاملتهم الخاصة كانوا يعاملون بمقتضى كتاب «السياسا» الذي وضعه جنكيزخان القائد والملك التتري، ولا بد أن نعرف شيئاً مما جاء في هذا الكتاب وقد أتى ابن كثير ببعض منه، وهذا نص ما جاء في التاريخ الكبير: «**إن من زنى قتل محصناً أو غير محصن، وكذلك من لاط قتل، ومن تعمد الكذب قتل، ومن سرق قتل، ومن دخل بين اثنين يختصمان فأعان أحدهما قتل، ومن بال في الماء الواقف قتل، ومن انغمس فيه قتل، ومن أطعم أسيراً أو سقاه قتل، ومن أطعم أحداً شيئاً فليأكل منه أولاً ولو كان المطعوم أميراً أو أسيراً، ومن أكل ولم يطعم من عنده قتل، ومن ذبح حيواناً ذبح مثله، بل يشق جوفه، ويتناول قلبه بيده يستخرجه من جوفه أولاً**».

هذا بعض ما جاء في هذا الكتاب، ولعله نقل الجزء القاسي منه، لأن كلمة قتل جاءت كثيراً.

الأمر الثالث: الذي يدل عليه كلام المقريزي أنه كان ثمة في مصر نظام الطبقات، فقد كان أولئك الوافدية لهم مركز خاص بهم، ولهم فوق ذلك قانونان يحكمانهم.

أحدهما: الشرع **وثانيهما**: قواعد «**السياسا**» لجنكيزخان.

ولا شك أن ذلك يدل على اضطراب الحال الاجتماعية، ولكن الحروب التي اشتدت، ووقف الجميع فيها جنباً إلى جنب، وإشراب القلوب بحب الإسلام أثرت في تلك الفرقة فخففتها، ولا نفرض أنها أزالتها، ولا نستطيع أن نفرض أنها كانت ذات قوة وسلطان، وإلا وجدنا على قلم ابن تيمية ما يذكرها بالخير أو بالشر.

●● الحال العلمية والفكرية:

اتسعت الدراسات في القرون السادس والسابع والثامن من الهجرة النبوية، والعلماء قد اختلفت مناهجهم، فعلماء قد استبحروا في الحديث والفقه والتفسير، والنحو والعقائد، ولكن كانوا مقلدين تابعين، حتى في العقائد، وكان بجوار هؤلاء فلاسفة مسلمون ينطلقون في الدراسات الفلسفية غير ملتفتين إلى غيرها، وبين هؤلاء وأولئك فلاسفة حاولوا الربط بين الشريعة والفلسفة كما رأينا ابن رشد يحاول ذلك في كتابه: **فصل المقال فيما بين الشريعة والفلسفة من الاتصال**.

ومن وراء هؤلاء المتصوفة المتفلسفة، والمتصوف العامي فكان أصحاب الطرق يقودون العامة إلى مناهج السلوك التي سنها علماء

الصوفية، ومسالكهم في الإرشاد والتوجيه تقوم على التأثير الشخصي بين الشيخ ومريديه، ومنهم من كان يشتط فيبتعد عن الدين، وجاء من وراء ذلك تقديس الأشخاص، واعتقاد الكرامة في الشيوخ، واتباعهم أحياء وتكريمهم بالزيارة أمواتاً، وكثرت الاستغاثة بهم في أضرحتهم.

وبجوار هؤلاء وأولئك كانت الفرق السياسية تتنازع بالفكر والحجة، ثم انتقل أمرها من المنازلات الفكرية إلى المكايدة وتدبير المؤامرات وموالاة أعداء الإسلام، وإفساد الأمر عند أولياء الأمر، كما كان من بعض الطوائف التي تربط نفسها بالشيعة.

ولا بد لكي نعرف الحال الفكرية من دراسة أمرين هما الدراسة العلمية، والصوفية والمتصوفة، ومعها الدراسات الشيعية ولنتكلم في كل واحد من هذه الأمور بكلمة موجزة توضح ولا تفصل.

●● الدراسات العلمية:

اتسمت الدراسات في عهد ابن تيمية بالتحيز الفكري، فكل له إمام يتبعه في الفقه، وفي العقيدة، وقد ابتدأ ذلك بالخلاف بين المذاهب في القرن الرابع، والتعصب المذهبي فيه، سواء كان في الفقه أم كان في الاعتقاد، وتوارثت الأجيال ذلك التحيز الفكري، فانتقل إليها مدوناً في الكتب، وإنك لتجد بعض الكتب الضخام، فتقرؤه، فتجده كله قائماً على شرح الخلافات القديمة، وبيان أوجه النظر المختلفة والتعصب لرأي منها، وقد سرى ذلك إلى المعاصرين لابن تيمية، فكان ذلك محل الخلاف بينه وبينهم، هم يتبعون الرجال على أسمائهم، وهو يتبع الدليل أنى يكون.

●● عصر كثرة المعلومات... لا كثرة الفكر!!

وإذا كانت القرون الثلاثة: السادس، والسابع، والثامن. قد امتازت في العلم بشيء؛ فقد امتازت بكثرة المعلومات، لا بكثرة الفكر، فقد كانت المعلومات كثيرة جداً، وتحصيلها كان بقدر عظيم، ولكن التفكير في وزن الأدلة بالمقاييس العقلية السليمة من غير تحيز كان قليلاً، ولم يكن متناسباً مع الثروة المثرية التي كانت في ذلك العصر، كتبت موسوعات في الفقه والحديث والتفسير والتاريخ، ولكن كان الاتباع والتقليد هو السائد، ولم يكن التفكير المستقل ذا سلطان.

ومهما يكن من شيء فإن سبل الدراسة العلمية كانت معبدة، وإذا كان العلماء قد وضعوا حول أنفسهم إطاراً من التقليد لا يخرجون عنه، فقد كانت الفرص مهيأة، لأن يجيء العالم الذي يدرس مستقلاً، فإن الموسوعات بين يديه يدرسها، لا دراسة التابع، بل دراسة المدقق الذي يزن الحقائق والأدلة.

لقد كانت المدارس في الفقه والتفسير والحديث قائمة في هذه القرون، مبسوطة، فيكون أمامه الموجّه من المدرسين الأكفاء، وأمامه الغذاء المسطور من أقوال العلماء، والتفسيرات المختلفة لكتاب الله تعالى، والموسوعات الجامعة لأحاديث رسول الله ﷺ، وفتاوى أصحابه، وفتاوى التابعين.

ولا يهمنا الإسهاب في تاريخ هذه المدارس، وكيف نشأت، ولكن الذي يهمنا هو مقدار ما أفاد ابن تيمية من هذه المدارس، فقد تغذى ابن تيمية من هذه المدارس غذاء كاملاً؛ كما تغذى من الموسوعات، حيث وجد كل العلم مبسوطاً، فابن حزم دون ديوانه الفقهي العظيم

في كتاب المحلي، وفيه فقه معظم الصحابة وفقه التابعين، وابن قدامة قد دون كتابه المغني. وفي الفقه الحنفي تجد الموسوعات الكبيرة كمبسوط شمس الأئمة السرخسي، وتجد في الفقه الحنبلي الكتب التي جمعت بين روايات المذاهب المختلفة، ووجد في المذهب الشافعي الموسوعات المقارنة ككتاب المجموع للنووي شرح المهذب. وهذا كان الأمر في الحديث وفي التفسير وفي الأصول، وفي الفلسفة وفي التصوف.

وكما كانت المدارس كانت المكاتب التي يسهل الاطلاع والقراءة فيها.

كانت المادة العلمية في شتى الفروع الإسلامية مهيأة بين يديه، وإذا كان غيره قد درسها دراسة حفظ واتباع، فابن تيمية درسها دراسة فحص واجتهاد، ففحصها فحص العارف الخبير المحيط بالدقائق وعميق الأفكار، فتكونت له آراء مستقلة توافق بعض المألوف، أو تخالفه كله، وانطلق في إعلان آرائه حراً جريئاً.

●● الصوفية والمتصوفة وأمور ليست من الدين:

شغل ابن تيمية بأمر التصوف في عهده، وقد استرعى نظره ثلاثة أمور لم تتفق مع تفكيره ونظره، ولا مع كل من يبحث في أمور الدين ببصيرة نافذة معتمداً على حقائق جلية لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وهذه الأمور الثلاثة هي الاتحاد، وسقوط التكليف عند وجود السمو النفسي، والشعبذة. أي الشعوذة بلغة العصر!!

ولنتكلم في كل واحد من هذه الأمور الثلاثة بكلمة موجزة. أما فكرة اتحاد الوجود مع الذات الإلهية، فقد نبعتْ من أفكار هندية، ومن نظرية حلول الألوهية في بعض النفوس وبعض الأشياء، ونتج من هذا

نظرية وحدة الوجود، وهي كما ذكرنا فكرة هندية قائمة لا يزال أثرها واضحاً في الأدب الهندي. **وقد تبلورت هذه الأفكار المختلفة كما أشرنا فكان التصوف الذي يقول إن الموجود واحد، وما التعدد الواقع إلا تعدد في الشكل لا من ذات الموجود، وعلى ذلك يكون الوجود كله بما فيه من أرض وسماء، ونجوم سابحة في الكون هي صور الله سبحانه وتعالى، وقد قال في ذلك ابن عربي:**

يا خالق الوجود في نفسه ... أنت لما تخلقه جامع
تخلق ما ينتهي كونه ... منك فأنت الضيق الواسع

هذا اتجاه بعض الصوفية في عهد ابن تيمية.

● **والناحية الثانية**: هي ناحية السمو، وأساسها الشوق إلى الله تعالى ومحبته، وأن المحبة قدر مشترك بين الصوفيين أجمعين، وأساسها الإشراف الذي يفيض الله به على نفوس المخلصين من عباده الأطهار، وليس الصوفيون في مقدار هذه المحبة على سواء، فمنهم من رَاضَ نَفْسَه على تلك المحبّة، واتصل بسببها بالله، ونزع منزعاً ليس بالحلول الإلّهي في النفس، ولا وحدة الوجود، ولكنه اتصال المخلوق بخالقه، وتساميه إلى مرتبة الروحانية ليكون قريباً من الله تعالى.

وإن الصوفي عندما يصل إلى هذه الدرجة من الاتصال بالذات العلية يكون غافلاً عن حسه فانياً في ربه، وتسمى هذه المرتبة مرتبة المحو. أو مرتبة السكر، لأنه يغيب فيها عن الحس، وهو إذا غاب عن المحسوس، لقي المتفرد بالوجود، وتسمى هذه الحال أيضاً بوحدة الشهود، فهو لم يكن هو والذات الإلّهية شيئاً واحداً، كما قال أصحاب وحدة الوجود، ولكنهم يقولون ارتفاع النفس بالمشاهد ترفع الشخص

من إدراك المحسوسات إلى مشاهد الذات العلية من غير كيف ولا مظهر.

●● ما يخفى صعب علاجه:

وان من تصل نفسه إلى هذه الدرجة تزكو، ويكشف عنها الحجاب. وعندما يصلون إلى هذا يهون التكليف، لا بل إنه توجد عبارات من هؤلاء الصوفية تهون أمْر المعاصي، فيقول في ذلك ابن عطاء الله السكندري الذي عاصر ابن تيمية «**حظ النفس في المعصية ظاهر جلي، وحظها في الطاعات باطن خفي، وما يخفى صعب علاجه**».

ويرى أبو الحسن الشاذلي أن السيئات ممن يحب الله ويحبه امرها يهون، ولذا يقول في دعائه:

«**اجعل سيئاتنا سيئات من أحببت، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت، فالإحسان لا ينفع مع البغض منك، والإساءة لا تضر مع الحب فيك، وقد أبهمت علينا الأمر لنرجو ونخاف، فآمن خوفنا، ولا تخيب رجاءنا، وأعطنا سؤالنا، فقد أعطيت الإيمان من قبل أن نسألك**».

وبهذا نرى أن السيئة مع المحبة في حكم الملغاة، والطاعة مع البغض في حكم الملغاة، ويصرحون بأن المعصية يرجى العفو فيها.

فيقول ابن عطاء الله السكندري في دعائه:

«**إلهي إن ظهرت المحاسن فبفضلك، ولك البينة عليّ، وإن ظهرت المساوىء فبعدلك، ولك الحق علي**».

ويقول المرسي أبو العباس في أدعيته:

«إلهي معصيتك نادتني بالطاعة، وطاعتك نادتني بالمعصية، ففي أيها أخافك، وفي أيها أرجوك؟ إن قلت بالمعصية قابلتني بفضلك، فلم تدع لي خوفاً، وإن قلت بالطاعة قابلتني بعدلك، فلم تدع لي رجاء، فليت شعري كيف أرى إحساني مع إحسانك أم كيف أجهل فضلك مع عصيانك؟».

هذه أدعية طائفة من كبراء الصوفية الأقطاب، وهي تفرِّق بين المعصية والحسنة، ولكنها ترجو المغفرة من المعصية والقبول في الطاعة، فهي لا تسقط التكليف، ولكن تفتح للعصاة باب التوبة، والعفو؛ ولكن كان من الصوفية من يغالون، فيقولون إن من وصل إلى مرتبة المحبة فإنه لا فرق عنده بين المعصية والطاعة، ويقولون إذا كانت الشريعة قد فرقت بينهما، فالحقيقة التي أساسها المحبة قد سوت بينهما.

●● البعض يتخذ الصوفية ستاراً لمعاصيه:

ولقد جاء العامة بعد الخاصة، فكان منهم من فهموا أنه لا معصية ولا طاعة، وإن لم يدركوا المعاني الفلسفية التي قامت عليها الفكرة، ومنهم من ادعى أنه الشيخ المتبوع، ولم يمنعه ذلك من أن يتناول أي ممنوع، فنال من الموبقات من غير حريجة دينية تمنعه، ولا نَفْسٌ لوامة تدافعه، بل اتخذ التصوف شعاراً يستر به مآثمه.

وكان من العامة من يقولون إنه يكفي اتباع الشيخ، أي شيخ من الشيوخ أو وليّ من الأولياء، حتى تكون الخوارق والكرامات فالنار لا تحرقهم، والأفاعي لا تلدغهم، وقاموا بأعمال شعبذة، أي شعوذة لا تتفق والمنطق الإنساني.

ورأى ابن تيمية كل هذا فحاربه، واشتد في حربه، ثم رأى أن

من هؤلاء الصوفية من اتصلوا بـالتتار، ومـالؤوهـم على أهـل الشام، وكانوا يقومون بالشعوذة أمـام «قازان» متملقـين له، آخـذين هباتـه، والمسلمون في دمشق في ذعر من أفعاله، فأضاف هذا إلى سيئاتهم في نظر ابن تيمية ـ ما أوجب المبالغة في حربهم، وكانت له كتاباته العنيفة فيهم. بل ورفضه لكل ما يصدر منهم.

●● منزلة العلماء:

مع هذا الجو المظلم كـان للعلماء منزلـة كبيرة عنـد ملوك دولة المماليك البحرية، إذ أن هؤلاء كان فيهم نزعة دينية، وكانوا يحبون أن يكون حكمهم على وفق الشريعة وكان يكثر هذا التكريم بـين الملوك ذوي الهمة في أوقات الشدة، وعندما يحتاجون إلى نفوذ العلماء، وكان ثمة علماء أفذاذ ذوو شخصية قوية لا يخشون لومة لائم ومنهم عز الدين ابن عبد السلام.

فكان الظاهر بيبرس خاضعاً له، وقد قال السيوطي في ذلك «**كان بمصر رجـل قوي يهابه أي حاكم متستراً تحت كلمة الشيـخ عز الـدين بن عبد السلام لا يستطيع أن يخرج أي حاكم عن أمره، حتى إنه قال لما مات الشيخ: «ما استقر ملكي إلا الآن»**.

●● واجب العلماء التنبيـه إلى الحق إن شط الحكام! وإنكـار الباطل منهم:

وإذا كان الظاهر بيبرس قد أحس باستقرار ملكه بعد وفاة الشيخ الجليل فإنه ما استقر ليكون ظالماً، بل كان من العلماء من ينبهه إلى الحق إن شط، وينكر عليه إذا لم يطع.

وعلى رأس هؤلاء محيى الدين النووي عالم دمشق، فإن الظاهر أراد أن يفرض ضرائب على الناس، وجدها الشيخ مرهقة، فكتب إليه عدة رسائل في هذا الشأن، ويقول في إحداها: «**إن أهل الشام في هـذه السنة في ضيق وضعف حال بسبب قلة الأمطار وغلاء الأسعار، وقلة الغلات والنبات، وهلاك المواشي، وأنتم تعلمون أنه تجب الشفقة على الرعية، ونصيحة ولي الأمر في مصلحته ومصلحتهم فإن الدين النصحية**.

وقد رد الظاهر رداً عنيفاً، واستنكـر على العلماء مـوقفهم منه، وسكوتهم يوم كانت البلاد تحت سنابك الخيل في عهد التتار لما استولوا على الشام، وفي الجواب تهديد.

فيرد عليه الشيخ رداً قوياً عنيفاً، ويقول في رده:

«وأما ما ذكر في الجواب من كوننا لم ننكر على الكفار كيف كانوا في البلاد، فكيف يقاس ملوك الإسلام وأهل الإيمـان وأهل القـرآن بطغاة الكفار؟!، وبأي شيء كنا نذكر طغاة الكفار، وهم لا يعتقدون شيئاً من ديننا؟!

ويرد تهديد بقوله: «وما أنا في نفسي فلا يضرني ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان، فإني أعتقد أن هذا واجب على غيري، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله، وأفوض أمري إلى الله، إن الله بصير بالعباد. وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول الحق حيثما كنا، وألا نخاف في الله لومة لائم، ونحن نحب السلطان في كل الأحـوال وما ينفعه في آخرته ودنياه».

●● لا أدخل دمشق والظاهر بها:

وقـد استمـرت كتب الشيـخ، واستمـر السلطان في جبـايـة

الضرائب، وفي سبيل ذلـك جمع فتـاوى من العلماء في تأييـد عمله، فاستخذوا وأطاعوه ما عدا الشيخ محيى الدين، فأحضره الظاهر، ليجبره برهبة السلطان على التوقيع، فأجابه الشيخ إجابة عنيفة جاء فيها: «أنا أعرف أنك كنت في الرق لأحد الأمراء، وليس لك مال، ثم من الله عليك، وجعلك ملكاً، وسمعت أن عندك ألف مملوك، كل مملوك له حياصة من ذهب، وعندك مائة جارية، لكل جارية حق من الحلى، فإن أنفقت ذلك كله، وأبقيت المماليك بالبنود والصَّدَف بدلاً من الحوائص الذهبية، وبقيت الجواري بثيابهن دون الحـلى أفتينك بـأخذ المـال من الرعية».

●● خاتمة العلماء المجاهدين:

فغضب الظاهر بيبرس، وقال اخرج من بلدي: «دمشق» فقال: «السمع والطاعة» وخرج إلى نوى بالشام، فقال الفقهاء إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا وممن نقتدي به فأعده إلى دمشق، فرسم برجوعه، فامتنع الشيخ، وقال لا أدخلها والظاهر بها فمات الظاهر بعد شهر من طلبه.

وقـد رأى ابن تيميـة الـظاهـر وعـوده أخضر، ورأى الشيخ محيى الدين النووي أيضاً..

ولهذا قد رأينا ابن تيمية يقف من الناصر موقف عز الدين بن عبد السـلام، وموقف محيى الـدين النووي، فـامتـدت بـه سلسلة العلماء المكافحين، وقد زاد عليهما أنه امتشق السيف للجهاد، وأنـه نزل بـه البلاء بسبب آرائه في الدين ووقوفه في وجه الحكّام، فمات رضي الله عنه في الحبس مضيقاً عليه، فرضي الله عنه، وأكرم مثواه، وجزاه عن العلم والإسلام خير الجزاء.

بسم الله الرحمن الرحيم

●● مسألة[1] سئل عنها شيخ الإسلام. أحمد بن تيمية في العذاب الذي في القبر.

هل هو على النفس والبدن؟!

أم على النفس دون البدن؟!

والميت يعذب في قبره حيًّا أم ميتاً؟!

وإذا عاد الروح إلى الجسد، فالروح والجسد يتشاركان في النعيم والعذاب! أو يكون على أحدهم دون الآخر؟!

●● الجواب:

● الحمد لله رب العالمين، بل العذاب والنعيم، على النفس والبدن جميعاً، باتفاق أهل السنة والجماعة. تنعم النفس وتعذب، منفردة عن البدن. وتنعم وتعذب منفردة، متصلة بالبدن، والبدن متصل بها.

فيكون النعيم والعذاب عليهما، في هذه الحال مجتمعينْ؛ كما تكون الروح منفردة عن البدن.

وهكذا يكون العذاب والنعيم للبدن بدون الروح؟!

هذا: فيه قولان مشهوران لأهل **الحديث** والسنة، وأهل الكلام. وفي المسألة[2] أقوال شاذة، ليست من أقوال أهل الحديث والسنة.

---

(١) كانت بأصل المخطوط مكتوبة هكذا: مسئلة.

(٢) كانت بالأصل المخطوط: المسئلة.

● **القول الأول**: قول من يقول: «أن النعيم والعذاب، لا يكون إلّا على الروح، وأن البدن لا ينعم ولا يعذب. وهذا يقوله: الفلاسفة المنكرون لمعاد الأبدان.

وهؤلاء كفارٌ باجماع المسلمين. ويقوله كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم، الذين يقرّون بمعاد الأبدان؛ لكن يقولون: لا يكون ذلك في الروح، وإنما يكون عند القيام من القبور.

● **القول الثاني**: الشاذ قول من يقول: ان الروح بمفردها لا تنعم ولا تعذب. وإنما الروح هي الحياة[1] وهذا قول طوائف[2] من أهل الكلام من المعتزلة[3] وأصحاب المنتسبين إلى المعرفة، وأصحاب أبي الحسن الأشعري، كالقاضي أبي بكر وغيرهم.

وينكرون أنّ الروح تبقى بعد فراق البدن، وهذا قول باطل

---

(١) في أصل المخطوط: الحيوة.

(٢) في أصل المخطوط: طوايف.

(٣) المعتزلة إحدى فرق: القَدَريَّة الذين اختلفوا في القدر والاستطاعة، من معبد الجُهنيّ، وغيلان الدمشقي، والجعد بن درهم، وتبرأ منهم المتأخرون من الصحابة، وأوصوا أخلافهم بأن لا يُسَلِّمُوا على القَدَرية ولا يـ لوا على جنائزهم، ولا يعودوا مرضاهم. ثم حدث في أيام الحسن البصري خلاف واصل بن عطا الغَزّال في القدر وفي المنزلة بين المنزلتين، وانضم إليه عمر بنُ عبيد بن باب في بدعته، فطردهما الحسن البصري من مجلسه، فاعتزلا عند ساريةٍ من سواري مسجد البصرة. فقيل لهما ولأتباعهما معتزلة؛ لاعتزالهم قول الأمة في دعواهما: أن الفاسق من أمة الاسلام لا مؤمن ولا كافر. ويضاف: أن القدرية الذين هم الأصل زعموا أن الناس هم الذين يقدرون أكسابهم، وأنه ليس لله عزّ وجلّ في أكسابهم، ولا في أعمار سائر الحيوانات صنع ولا تقدير. ولذا سموا قدرية.

[يراجع الكتاب: **الفرق بين الفرق، وبيان الفرقة الناجية منهم**].

خالفه الأستاذ أبو المعالي الجويني وغيره، بل قد ثبت بالكتاب[1] والسنة[2]

(١) الكتاب: يراد به كتاب الله وهو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فهو الفارق بين الشك واليقين، الذي أعجزت الفصحاء معارضته، وأعيت الألبّاء مناقضته، وأخرست البلغاء مشاكلته، فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وجعل الله أمثاله عبراً لمن تدبرها، وأوامره هدى لمن استبصرها، وشرح فيه واجبات الأحكام وفرق فيه بين الحلال والحرام، وكرر فيه المواعظ والقصص للأفهام، وضرب فيه الأمثال، وقص فيه غيب الأخبار، فقال تعالى: ﴿**ما فَرّطْنا في الكتاب من شيء**﴾ وقال تعالى: ﴿**كتاب أنزلناهُ إليك مبارك ليدبروا آياته**﴾.
وجاء في كشاف اصطلاحات الفنون جـ ١: أن الكتاب: النازل على محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، هو القرآن الكريم الجامع لأحكام الوجود المطلق، وهو علم الكتاب. وإليه أشار الحق جلّ وعلا بقوله: ﴿**ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين**﴾ «سورة الأنعام ـ الآية ٥٩».

(٢) السنة: هي الأصل الثاني من أصول الاسلام المقررة، وهي كنز من كنوز الوحي الإلّهي، والاجتهاد المحمدي الذي أقره الله عليه، وهي فوق ما تشتمل عليه من شرائع وأحكام، فيها مواعظ، وجهاد، وسير، وأخلاق، وآداب؛ لأن الذي قالها هو الذي قال فيه ربه تبارك وتعالى: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ سورة القلم. الآية رقم ٤. والسنة المطهرة لمجموع ما اشتملت عليه من شرائع وبينات، وحكم وأخلاق، وتنظيم للمجتمع، وإقامة لدعائم الفضيلة، تدل لصدورها عن هذا النبي الأمي الذي نشأ في بلد أمّي، وبين قوم أُمِّيِّنَ، على أنه كان يُخَاطَبُ من عند الله العلي الحكيم، كما قال تعالى: ﴿**وما ينطق عن الهوى، إن هو إلّا وحي يوحى**﴾ النجم ـ ٣ و ٤. **والسنة المطهرة: إذا قرأها الضال اهتدى، وإذا قرأها المنكر آمن، وإذا قرأها المُمارس أذعن، وإذا قرأها المتصرف لأسرار النفوس انتفع، ويسعى إلى واديها طالب الهداية، وطالب الحكمة** وطالب الأخلاق، وطالب القدوة.
والسنة النبوية المطهرة: هي كمال تبليغ رسالة الله، وهي علم علمه لنبيّه. فما كان ينطق عن الهوى، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يُضلُّوكَ وما يضلُّون إلّا أنْفُسَهُمْ وما يضرونَكَ من شيء وأنزل الله عليك الكتابَ والحكمة وعلمكَ ما لم تكن تَعلَمُ وكان فضلُ الله عليكَ عظيماً**﴾ النساء الآية ١١٣.
والقرآن الكريم فيه مجملات كثيرة، لا يمكن الأخذ بها إلا ببيان: فكلمة الزكاة مجملة، لا تعلم إلا ببيان مفصل، وكلمة الصلاة لا يعلم تفصيلها من حيث عدد الركعات لكل فرض، والركوع والسجود، وما يقال في الركوع والسجود إلا من السنة والحج كلمة مجملة لا تعلم إلا ببيان مفصل. =

واتفاق سلف الأمة[1] أن الروح تبقى بعد فراق البدن، وأنها منعمة ومعذبة.

= وليس هذا البيان وارداً في القرآن، فلا بد من تعرُّفِهِ ممن نزل عليه القرآن، ومن كلّف تبليغه وشريعته، وهو الرسول الأمين الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، فلا ينطق عن الهوى. وهو محمد ﷺ.

ويقرر الشاطبي: أن السنة راجعة في معناها إلى الكتاب ـ أي القرآن الكريم ـ فهي تفصيل لمجمله، وبيان لمشكله، وبسط لمختصره، وذلك لأنها بيان له، وهو الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزّل إليهم**﴾ سورة النحل ـ الآية ٤٤.

(١) السَّلف: قال ابن منظور في «لسان العرب»: السَّالف المتقدم. والسَّلف والسَّليف والسَّلفة: الجماعة المتقدمون. قال عز وجل ﴿**فجعلناهم سَلَفاً ومثلاً للآخرين**﴾. ويقرأ سُلَفاً وسُلْفاً.

وفي كتاب: جامع الرموز، يقول علماء الحنفية: السلف في الشرع اسم لكل من يقلد مذهبه في الدين، ويتبع أثره كأبي حنيفة وأصحابه فإنهم سلف لنا، والصحابة والتابعين فإنهم سلفهم، وقد يطلق السلف شاملاً للمجتهدين كلهم.
وفي كلمات أبي البقا: «كل عمل صالح قدمته، وكل من تقدمك من آبائك وقرابتك فهو سلف وقرط لك، والسلف من أبي حنيفة إلى محمد بن الحسن، إلى شمس الأئمة الحلواني؛ والمتأخرون من شمس الأئمة الحلواني إلى حافظ الدين البخاري، والمتقدمون في زماننا أبو حنيفة وتلامذته بلا واسطة؛ والمتأخرون هم الذين بعده من المجتهدين في المذهب. ومن ينتسب إلى مذهب الامام أحمد بن حنبل يقول: «السلف الامام أحمد بن حنبل ومن تقدمه من الصحابة والتابعين». وعلماء الشافعية، والمالكية، وعلماء الكلام، والفلاسفة يقولون: «السلف ما كان قبل الأربعمائة، والخلف ما كان بعد الأربعمائة.

●● والخلاصة: نقول أن المراد بالسَّلف هم صحابة النبيّ ﷺ، الأجلاء الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل الجنة مثواهم، وأعيان علماء التابعين لهم بإحسان، وأتباعهم وأتباع أتباعهم وأئمة الدين ممن شُهد لهم بالإمامة، وعُرِفَ عِظَمَ شأنهم في الدين والورع، والتقوى ظاهراً وباطناً، وتلقى الناس كلامهم بالقبول والعمل به خلف عن سلف. ومنهم الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب، والقدوة أرباب المواهب رضي الله عنهم أجمعين

والفلاسفة الإلٓهيون يقرّون بهـذا؛ لكن ينكرون معـاد الأرواح ونعيمها وعذابها بدون الأبدان. وكلا القولين[1] خطأ أو ضلال؛ لكن قول الفلاسفة أبعد عن أقوال أهل الإسلام، وإن كـان قد يوافقهم عليه من يعتقد أنه متمسك بدين الإسلام، بل من يُظن أنه **من أهـل المعرفـة والتصوف والتحقيق والكلام**.

● **والقول الثالث**: الثالث الشاذ: قول من يقول: «أن البرزخ[2] ليس فيـه نعيم، ولا عذاب، لا يكـون كذلـك حتى تقوم القيـامـة[3] الكبرى» كما يقول: ذلك من يقوله: من المعتـزلة، ونحـوهم، الذين ينكرون عذاب القبر ونعيمه، بناء على أن الروح لا تبقى بعد فـراق البدن، وأن البدن لا ينعم، ويعذب! فجميع هؤلاء ضلال الطائفتـين قبلهما من أقرّ بالبرزخ، لكنهم خير من الفلاسفة؟ لأنهم يقرّون بالقيامة الكبرى.

●● مذهب السلف وأهل السنة:

فإذا عرفت هذه الأقوال الثلاثة الباطلة. فَلِيُعْلَمْ أن **مذهب سلف الأمة وأئمتها، أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمـة أو معـذبة، وأنها تتصـل بالبـدن أحيانـاً، فيحصل لـه معها[4] النعيم أو العذاب**.

---

(١) كانت بالأصل: القين.

(٢) الْبَـرزخ: لغة: الشيء الـذي يحول بـين شيئين ويـطلق عـلى مـا بـين الـدنيـا والآخـرة، وهـو الزمـان الـواقـع بـين المـوت والنشـور، وأمـا مـا جـاء في القرآن من قـولـه: ﴿**برزخ إلى يوم يبعثون**﴾ المؤمنون ـ ٢٢ ـ فالمراد به القبر، لأنه يقع بين الدنيا والآخرة، وقيل البرزخ الحائل بين شيئين كما جاء في قوله تعالى: ﴿**بينهما برزخ لا يبغيان**﴾ الرحمن ـ ٥٥ ـ.

(٣) كانت بالأصل: القيمة.

(٤) كانت بالأصل: معنا

ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد، وقاموا من قبورهم لرب العالمين. **ومعاد الأبدان** متفق عليه عند المسلمين واليهود والنصارى. وهذا كله متفق عليه عند علماء الحديث والسنة.

ولكن هل يكون للبدن بدون الروح نعيم أو عذاب؟ أثبت ذلك طائفة منهم، وينكره أكثرهم! ونحن نذكر ما يبين ما ذكرنا.

فأما أحاديث عذاب القبر ومسائلة: «منكر ونكير» فكثيرة متواترة عن النبي ﷺ، مثل: ما في الصحيحين عن ابن عباس أن النبي ﷺ مَرّ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستبرىء من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة، ثم دعا بجريدة رَطْبَةٍ فشقها نصفين وقال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا»[1].

● وعن زيد بن ثابت قال: بينا رسول الله ﷺ في حائط[2] لبني النجار على بغلة ونحن معه، إذ حادت به، فكادت تقلبه، فإذا أَقْبُرٌ ستة، أو خمسة، أو أربعة. فقال: «من يعرف أصحاب هذه القبور، فقال رجل أنا. قال: فمتى مات هؤلاء؟! قال: ماتوا في **الإشراك!** فقال: إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن **يدافنوا** لدعوت الله أن يسمعكم عذاب القبر الذي أسمع منه، ثم أقبل علينا بوجهه فقال: تعوذوا بالله من عذاب النار. قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار. قال:

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم. وجاء في شرح البخاري تحت رقم ١٣٦١ ص ٢٦٤ المجلد الثالث. حدثنا يحيى حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن مجاهد عن طاووس عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ

(٢) كانت بالأصل: حايط.

تعوذوا بالله من عذاب القبر. قالوا نعوذ بالله من عذاب القبر. قال: تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن. قالوا نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن. قال تعوذوا بالله من فتنة الدجال. قالوا نعوذ بالله من فتنة الدجال». [رواه مسلم: في صحيحه].

● وعن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال: «إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فليتعوّذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال» [رواه مسلم في صحيحه وسائر كتب السنة].

وفي صحيح مسلم أيضاً وغيره عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات» [رواه مالك، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي].

● وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي أيوب قال: خرج النبيّ ﷺ وقد وجبت الشمس، فسمع صوتاً فقال: «يهودٌ تعذب في قبورها».

● وفي الصحيحين عن عائشة قالت: «دخلت على عجوز من عجائز يهود أهل مكة، فقالت: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم، قالت: فكذبتها ولم أنعم أن أصدقها. قالت فخرجت، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ، فقلت يا رسول الله إنَّ عجوزاً من عجائز أهل المدينة دخلت عليَّ، فزعمت أن أهل القبور يعذبون في قبورهم. فقال: صدقت، إنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم كلها». قالت: فما رأيته بعد في صلاة إلا تعوذ بالله من عذاب القبر.

● وفي صحيح أبي حاتم البستي عن أم مبشر قالت: دخل عليّ

رسول الله ﷺ وأنا في حائط[1] وهو يقول: «تعوذوا بالله من عذاب القبر. فقلت: يا رسول الله، أَلِلْقَبْر عذاب؟! قال: نعم، إنهم ليعذبون في قبورهم! عذاباً تسمعه البهائم». قال: بعضهم ولهذا السبب يذهب الناس بدوابّهم إذاتمغلت[2] إلى قبور اليهود والنصارى والمنافقين؛ كالاسماعيلية، والنصيرية، وسائر القرامطة، بني عبيد وغيرهم، المدفونين بأرض مصر والشام وغيرهما؛ فإن أهل الخيل يقصدون قبورهم، كما يقصدون قبور اليهود والنصارى والجهال يظنون أنهم من ذرية فاطمة، وأنهم من أولياء الله، وإنما هم من هؤلاء!

قيل: إن الخيل إذا سمعت عذاب القبر حصل لها من الحرارة ما يذّهب بالمغل. والحديث في هذه ـ أي هذه العجالة ـ لا تتسع له هذه الورقة. وأحاديث[3] المساءلة كثيرة أيضاً. كما في الصحيحين والسنن، عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في قبره يَشْهَد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله» فذلك قوله جلّ وعلا: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾[4] وفي لفظ النّسائي نزلت في عذاب القبر، يقال له: مَنْ رَبُّك؟! فيقول: ربي الله، ونبيي محمد. فذلك قول الله: «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة».

---

(١) كانت بالأصل: حايط والحائط يعني البستان.

(٢) في المصباح المنير: أوغل في السير إيغالاً وتوغّلَ: أَمْعَنَ وأسْرَع. وأوْغَلَ في الأرض أبعدَ فيها. «الْوَغَى»: مقصور الجلبة والأصوات ومنه الحرب. وقال: ابن جنيّ الوغَى بالمهملة الصوت والجلبة، وبالمعجمة الحرب نفسها!

(٣) كانت بالأصل: المسايلة. والمقصود بأحاديث المساءلة: أي سؤال القبر.

(٤) سورة إبراهيم، رقم الآية ـ ١٤.

● وهذا الحديث قد رواه أهل السنن والمسانيد طويلاً، كما في سنن أبي داود وغيره، عن البراء بن عازب. قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر، ولما يلحد، فجلس وجلسنا حوله، كأنما على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكث به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر، مرتين أو ثلاث» وذكر صفة قبض الروح وعروجها إلى السماء، ثم عودها إليه، إلى أن قال: «وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولّوا مدبرين، حين يقال له يا هذامن ربك؟! وما دينك؟! ومن نبيك؟!».

وفي لفظ: ويأتيه ملكان فيجلسان ويقولا له من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول الله ربي. فيقولان له ما دينك؟ فيقول ديني الإسلام. فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ قال: فيقول: هو رسول الله ﷺ. فيقولان له: وما يدريك؟ فيقول: قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقته، فذلك قوله: يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

قال: فينادي منادٍ من السماء، أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة؛ قال فيأتيه من روحها وطيبها. قال: ويفسح له فيها مدّ بصره.

قال: وإن الكافر فذكر موته، قال: فتعاد روحه إلى جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان من ربك؟ فيقول هاه! هاه! لا أدري! فيقولان ما دينك؟! فيقول: هاه! هاه! لا أدري! فيقولان من نبيك؟! فيقول: هاه! هاه! لا أدري! فينادي منادٍ من السماء أن كذب. فأفرشوه من النار، وألبسوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار. قال: فيأتيه من حرّها وسمومها. قال: ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه.

قال: ثم يقيّض له أعمى أبكم! معه مرْزبة من حديد، لو ضُرِبَ بها لكان تراباً! قال: فيضربه بها ضربة يسمعها مَنْ بَيْنَ المشرق والمغرب إلا الثَّقلَيْن فيصير تراباً، ثم تعاد فيه الروح»[1].

● فقد صُرِّح في هذا الحديث بإعادة الروح إلى الجسد، وباختلاف أضلاعه. وهذا بيّن في أن العذاب على الروح والبدن مجتمعين.

وقد رواهُ أبو حاتم بن حبان في صحيحه عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «إن الميت إذا وضع في قبره أنه يسمع خفق نعالهم حين يتولون عنه، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه، وكانت الزكاة عن شماله، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة[2] والمعروف والإحسان عند رجليه، فيؤتى من قبل رأسه، فتقول الصلاة ما قِبلي مدخل. ثم يؤتى عن يمينه، فيقول الصيام ما قبلي مدخل. ثم يؤتى من يساره فتقول الزكاة ما قبلي مدخل. ثم يؤتى من قبل رجليه، فيقول: فعل الخيرات من الصدقة، والصلة، والمعروف، والإحسان، ما قبلي مدخل. فيقول له إجلس فيجد[3] قد مثلت له الشمس، وقد أصلت للغروب، فيقال له هذا الرجل الذي كان فيكم. ما تقول فيه، وماذا تشهد به عليه، فيقول: دعوني حتى أصلّي،

(١) وقد جاء في عذاب القبر غير هذه الأحاديث: منها عن أبي هريرة وابن عباس، وأبي أيوب، وسعد، وزيد بن أرقم، وأم خالد في الصحيحين أو أحدهما، وعن جابر عند ابن ماجة، وأبي سعيد عند ابن مردويه، وعمر وعبد الرحمن بن حسنة، وعبد الله بن عمر وعند أبي داود، وابن مسعود عند الطّحاوي، وأبي بكره وأسماء بنت يزيد عند النسائي، وأم مبشر عند ابن أبي شيبة، وعن غيرهم.
وفي أحاديث الباب من الفوائد: إثبات عذاب القبر، وأنه واقع على الكفار، ومن شاء الله من الموحدين.

(٢) أي صلة الأرحام.

(٣) كانت بالأصل: فيجلس.

فيقولون: إنك لتصلي، أخبرنا عما نسألك عنه. أرأيت هذا الرجل الذي كان فيكم؛ ما تقول فيه؟ وماذا تشهد عليه؟ فيقول: محمد، أشهد أنه رسول الله، جاءنا بالحق من عند الله فيقال له على ذلك حييت، وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله. ثم يفتح له باب من أبواب الجنة؛ فيقال له: هذا مقعَدُك منها، وما أعد الله لك فيها: فيزداد غبطة وسروراً، ثم يفتح له باب من أبواب النار فيقال له هذا مقعدك، وما أعد الله لك فيها لو عصيته!! فيزداد غبطة وسروراً. ثم يفتح له في قبره سبعون ذراعاً وينور له فيه، ويعاد الجسد لما بدا منه، فيجعل نسمته في النسيم الطيب. وهو طير تعلّق في شجر الجنة. قال: فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾[1]

وذكر في الكافر ضد ذلك إلى أن قال: ثم يضيق عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلاعه، فتلك المعيشة الضنك التي قال الله ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[2]. وحديث البراء[3] المتقدم أطول مما في السنن. فإنهم اختصروه لذكر ما فيه من عذاب القبر، وهو في المسند وغيره بطوله. وهو حديث حسن ثابت. يقول النبي ﷺ فيه: «إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة، وانقطاع من الدنيا، نزلت إليه ملائكة بيض الوجوه. كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من كفن الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، فيجلسون منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس المطمئنة الطيبة اخرجي إلى مغفرة منه ورضوان. قال: فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من السقّا. فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وذلك الحنوط، فيخرج منها

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٧.
(٢) سورة طه: الآية ١٢٤.
(٣) كانت بالأصل البر.

كأطيب[1] نفحة سسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملإٍ[2] من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة؟! فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمّونه في الدنيا حتى ينتهوا به إلى سماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له قال: فيشيعه من كل سماء مقرَّبُوها، إلى السماء التي تليها، حتى ينتهون به إلى السماء السابعة. فيقول الله اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى. قال: فتعاد رَوْحُه إلى جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه. وذكر المساءلة[3] كما تقدم، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه طيب الريح فيقول له أبشر بالذي يَسُرّك، فهذا يومك الذي كنت توعد. فيقول له: من أنت؟! فوجهك الوجه يجيء بالخير فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: ربّ أقم الساعة. ربّ أقم الساعة ثلاثاً. حتى أرجع إلى أهلي ومالي. قال: وان العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح فيجلسون منه مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، أخرجي إلى سخط الله وغضبه، فتفرق في أعضائه كلها فينزعها نزع النضود من الصوف المبلول فتقطع معها العروق والعصب، قال فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذونها فيجعلونها في تلك المسوح. قال: ويخرج منها كأنتن جيفةٍ وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرّون على ملإٍ[4] من الملائكة إلاّ قالوا هذه الروح الخبيثة، فيقولون فلان بن فلان بأقْبَح أسمائه الذي كان يسمَّى بها في الدنيا حتى ينتهوا

---

(١) كانت بالأصل المخطوط كالطيب.
(٢) كانت بالمخطوط ملاء.
(٣) كانت بالأصل: المخطوط: المسائلة.
(٤) كانت بالمخطوط ملاء.

إلى سماء الدنيا فيستفتحون لها، فلا يفتح لها. ثم قرأ[1] رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾[2] قال ثم يقول الله اكتبوا كتابه في سجّين في الأرض السفلى. قال فتطرح رَوْحه طرحاً. ثم قرأ رَسُولُ الله ﷺ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[3] قال فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسان فيقولان له: من ربك؟ فيقول هاه. هاه. لا أدري؟! وساق الحدث كما تقدم إلى أن قال: ويأتيه رجل قبيح الوجه منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوءك! هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول: من أنت؟! فوجهك الوجه يجيء بالشرّ فيقول: أنا عملك السيء فيقول: رب لا تقم الساعة، وفي هذا الحديث أنواع من العلم منها أن الرّوح مفارقة البدن **خلافاً لضلال المتكلمين**. وأنها تصعد وتنزل **خلافاً لضلال الفلاسفة**. وأنها تعاد إلى البدن، وأن الميّت يسأل فينعم أو يعذب كما سأل عنه أهل السؤال، وفيه أن عمله الصالح أو السيء يأتيه في صورة حسنة أو قبيحة.

● وفي الصحيحين عن قتادة، عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، حتى أنه يسمع خفق نعالهم، أتاه ملكان فيقرّرانه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، قال: فيقول: انظر إلى مقعدك من النار! قد بدّلك الله به مقعداً من الجنة. فقال: رسول الله ﷺ فيراهما كلتاهما» قال قتادة وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً ويملأ عليه حضراً إلى يوم يبعثون، ثم رجع إلى حديث أنس. ويأتي الكافر والمنافق فيقول: ما كنت تقول في هذا الرجل

---

(١) كانت بالأصل: المخطوط: قراء. (٢) سورة الأعراف - الآية رقم ٤٠.

(٣) سورة الحج - رقم الآية ٢٢.

فيقول: لا أدري كنت أقول كما يقول الناس. فيقول لا دريت ولا تليت. ثم يضرب بمطراق من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة فيسمعها من عليها ما غير الثقلين.

● وقد روى الترمذي وأبو حاتم في صحيحه، وأكثر اللفظ له عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ. «إذا قبر أحدكم أو الانسان أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر والآخر نكير، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل لمحمد ﷺ، فهو قائل ما كان يقول: فإن كان مؤمناً قال: هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إلّه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ، فيقولان له: إنا كنّا لنعلم أنك لتقول ذلك، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ذراعاً ويُنَوّر له فيه. ويقال له نم. فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم. فيقولان نم نومة العرس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه، وذلك وان كان منافقاً قال: لا أدري كنا نسمع الناس يقولون شيئاً فكنت أقوله، فيقولون: إنه كنا نعلم أنك تقول ذلك، ثم يقال للأرض التأمي عليه فتلتأم عليه، حتى تختلف بها أضلاعه، فلا يزال معذَّباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك.

وهذا الحديث فيه اختلاف أضلاعه، وغير ذلك مما يبين أن البدن نفسه يعذب، وعن أبي هريرة أن نبي الله ﷺ قال: إذا حضر الميت أتته الملائكة بحريرة بيضاء[1] فيقولون: اخرجي راضيةً مرضيًّا عنك، إلى روح الله وريحان ورب غير غضبان؛ فتخرج كأطيب ريح المسك، حتى أنه ليناوله بعضهم بعضاً، حتى يأتوا به باب السماء[2] فيقولون ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم[3] من الأرض. فيأتون به أرواح المؤمنين، فلهم أشد

(١) كانت بالأصل: بيضا. (٢) كانت بالأصل: السما.

(٣) كانت بأصل المخطوط: جائتكم.

فرحاً به من أحدكم بغائبه يقدم عليه فيسألونه ماذا فعل فلان؟! ماذا فعل فلان؟! فيقولون دعوه فإنه كان في غم الدنيا، فإذا قال انه أتاكم قالوا ذهب به إلى أمه الهاوية؛ وأن الكافر إذا أحضر أتته ملائكة العذاب بمسح فيقولون اخرجي مسخوطاً عليك إلى عذاب الله. فتخرج كأنتن جيفة حتى يأتوا به أرواح الكفار» رواه النسائي والبزار. ورواه مسلم مختصراً عن أبي هريرة. وقال عند ذكر الكافر ونتن رائحة روحه! فرد رسول الله ﷺ ريطةً كانت عليه، على أنفه، هكذا والريطة كل ثوب رقيق مثل الملاة. وأخرجه أبو حاتم في صحيحه. وقال ان المؤمن إذا أحضره الموت، حضرت ملائكة الرحمة، فإذا قبضت روحه، جُعِلَتْ في حريرة بيضاء[1]، فينطلق بها إلى باب السماء، فيقول: ما وجدنا ريحاً أطيب من هذه. فيقال دعوه يستريح، فإنه كان في غم الدنيا، فيسأل ما فعل فلان؟ ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة؟ وأما الكافر فإذا قبضت نفسه ذهب بها إلى الأرض. يقول خزنة الأرض ما وجدنا ريحاً انتن من هذه. فَيَبْلُغُ بها إلى الأرض السفلى.

ففي هذه الأحاديث ونحوها اجتماع الروح والبدن في نعيم القبر وعذابه. وأما انفراد الروح وحدها فقد تقدم بعض ذلك.

● وعن كعب بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: إنما نسْمَةُ المؤمن طائر[2] تعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جَسَدِهِ يوم يبعثه. رواه النسائي ورواه مالك والشافعي كلاهما.

وقوله تعلق بالضم أي تأكل وقد تقدم هذا في غير هذا الحديث، فقد أخْبَرت هذه النصوص أن الروح تنعم مع البدن الذي في

(١) كانت بأصل المخطوط: بيضا.

(٢) كانت بأصل المخطوط: طاير.

القبر إذا شاء الله. وأنها تنعم في الجنة وحدها، وكلاهما حق.

● فقد روى ابن أبي الدنيا في كتاب ذكر الموت عن مالك بن أنس الإمام قال: «بلغني أن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت[1] وهذا يوافق ما روي عن[2] الأرواح قد تكون على أفنية القبور كما قال مجاهدُ أنّ الأرواح على القبور سبعة أيام لا تفارق ذلك. وقد تعاد الروح إلى البدن في غير وقت المساءلة[3] كما في الحديث الذي صححه بن عبد البرّ عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا فيسلّم عليه إلا ردّ الله عليه روحه، حتى يرد عليه السلام» وفي سنن أبي داود، وغيره عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما من رجل يسلّم عليّ إلّا ردّ الله عليَّ روحي، حتى أرد عليه السلام» وفي سنن أبي داود وغير عن أوسٍ ابن الثقفي عن النبي ﷺ أنّ خير أيامكم يوم الجمعة فأكثروا عليّ من الصلاة يوم الجمعة، وليلة الجمعة، فان صلاتكم معروضة عليّ قالوا يا رسول الله كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت قال إن الله قد حرم على الأرض ان تأكل أجساد الأنبياء.

● وهذا الباب فيه من الأحاديث والآثار ما يضيق هذا الموضع عن استقصائه مما يبين أن الأبدان التي في القبور تنعم وتعذب إذا شاء الله ذلك كما شاء[4] وأن الأرواح تتصل بها إذا شاء الله ذلك. وأن الأرواح باقية بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة.

ولهذا أمر النبي ﷺ بالسلام على الموتى كما ثبت عنه في الصحيح والسنن أنه كان يعلِّم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا: «السلام

---

(١) كانت بأصل المخطوط: شأت.

(٢) كانت بالمخطوط: من.

(٣) كانت بالمخطوط: المسايلة.

(٤) كانت بالمخطوط: شا.

عليكم أهل دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين. نسأل الله لنا ولكم العافية، اللهم لا تحرمنا أجرهم، ولا تفتنا بعدهم، واغفر لنا ولهم».

وقد انكشف لكثير من الناس ذلك حتى سمعوا أصوات المعذبين في قبورهم، ورأوْهم بعيونهم يعذبون في قبورهم. وفي ذلك آثارٌ كثيرة معروفة. ولكن لا يجب أن يكون ذلك دائماً على البدن في كل وقت بل[1] أن يكون ذلك في حال دون حال.

●● يا رسول الله كيف يسمعون؟!

وفي الصحيحين عن أنس: «أن النبي ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثاً، ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم. فقال: يا أبا جهل بن هشام يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة. يا شيبة بن ربيعة. أليس قد وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً. فسمع عمر قول النبي ﷺ فقال: **يا رسول الله كيف يسمعون؟!** أو أن يجيبون وقد جيفوا؟!! فقال والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم!! ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا في **قليب بدر**».

● وقد أخرجا في الصحيحين عن ابن عمر أن النبي ﷺ **وقف على قليب بدر** فقال: «هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً. وقال إنهم ليسمعون الآن ما أقول: فذكر ذلك لعائشة فقالت: **وهم ابن عمر إنما** قال رسول الله ﷺ انهم ليعلمون الآن أن الذي قلت لهم هو الحق. ثم قرأت قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾[2]، حتى قرأت الآية وأهل العلم

(١) حذفنا كلمة: «أن؛ يجوز» حيث أنه كان يوجد فوقهما حرف م م أي مشطوب ووجدنا الكلام يستقيم من غيرهما.

(٢) سورة النمل: الآية ٨٠ يقول جل ذكره: ﴿فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين﴾.

بالحديث والسنة اتفقوا على صحة ما رواه أنس وابن عمر، وان كانا لم يشهدا بدراً فإن أنساً روى ذلك عن أبي طلحة، وأبو طلحة شهد بدراً، كما روى أبو حاتم في صحيحه عن أنس عن أبي طلحة أن النبي ﷺ «أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فرموا في طوى من أطوى بدر، وكان إذا ظهر على قوم أحب أن يقيم على **تعرضتهم** ثلاث ليال فلما كان يوم الثالث أمر براحلته فشد عليها فرحلها ثم مشى ومعه أصحابه وقالوا ما نراه ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على **سقا الركي** فجعل يناديهم باسمائهم واسماءِ آبائهم يا فلان ابن فلان أيسّركم أنكم أطعتم الله ورسوله فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً قال فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله ما تكلم من أجساد الأرواح فيها فقال النبي ﷺ والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم. قال قتادة أحياهم الله حتى أسمعهم توبيخاً وتصغيراًونقهاً وحسرة وتنديماً. وعائشة رضي الله عنها **تأولت** فيما ذكرته كما تأولت في أمثال ذلك النص الصحيح عن رسول الله ﷺ **تقدم تأول من تأول من أصحابه** وغيرهم وليس في القرآن ما ينفي ذلك. فإن قوله لا تسمع الموتى إنما أراد به السماع المعتاد الذي ينفع صاحبه فإن هذا مثل ضرب الكافر والكافر يسمع الصوت. لكن لا يسمع سماع قبول بفقه وانتفاع كما قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [1]. فكذلك الموتى الذين ضُرِبَ بهم المثل لا يجب أن ينفى عنهم جميع أنواع السماع كما لم ينف ذلك عن الكافر، بل قد انتفى عنهم السماع المعتاد الذي ينتفعون به. فأما سماع آخر فلا ينفى عنهم. وهذه جملة يحصل بها مقصود السائل وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما أن الميت يسمع قرع

(١) سورة البقرة: الآية ١٧١.

نعالهم حين يولون عنه مدبرين فهذا موافق لهذا فكيف يدفع ذلك.

ومن العلماء من قال ان الميت في قبره لا يسمع ما دام ميتاً كما قالت عائشة واستدل بالقرآن الكريم. وأما إذا أحياه الله فإنه يسمع كما قال قتادة أحياهم الله وإن كانت تلك الحياة[1] لا نشعر بها نحن كما لا نرى الملائكة والجن ولا نعلم ما يحسّ به الميت في منامه، وكما لا يعلم إنسان ما في قلب الآخر، وإن كان قد يعلم ذلك من أطْلَعُه الله عليه، وإن كان لها من الشرح والتفصيل ما ليس هذا موضعه، فإنما ذكرنا فيه من الأدلة البينة على ما سَأل عنه ما لا يكاد يوجد مجموعاً والله اعلم. «إنتهى».

●● ولنا كلمة:

وكلمتنا تدور حول توضيح بعض الكلمات أو الاصطلاحات التي ذكرناها آنفاً ضمن الكتاب ـ مثل: البرزخ، والقبر، والروح، والبعث، والموت، وكما بدأنا الكتاب بحمد الله والثناء عليه، فسوف نختمه بدعاء اصطفيناه من أدعية السلف الصالح والله سبحانه وتعالى سميع مجيب.

● فالموت في الحقيقة كما قال بعض العلماء: ليس بعدم محض، ولا فناء صرف، وإنما هو: انقطاع تعلق الروح بالبدن، ومفارقة بينهما، وتبدل حال، وانتقال من دار إلى دار «أي من دار التكليف والعمل إلى دار البرزخ والسؤال» فعن عمر بن عبد العزيز أنه قال: «إنما خلقتم للأبد والبقاء، ولكنكم تنقلون من دار إلى دار» وكان بلال بن سعد يقول في وعظه: «يا أهل الخلود، ويا أهل البقاء إنكم لم

---

(١) كانت بأصل المخطوط: الحيوة.

تخلقوا للفناء، وإنما خلقتم للخلود والأبد، وإنكم تنقلون من دار إلى دار».

● وأخرج الإمام أحمد، وسعيد بن منصور في سننه بسند صحيح عن محمود بن لبيد، أن النبيّ ﷺ قال: «اثنان يكرههما ابن آدم، يكره الموت، والموت خير له من الفتنة، ويكره قلة المال، وقلة المال أقل للحساب».

● وأخرج الشيخان: «البخاري ومسلم» عن أبي قتادة الحارث بن رِبْعيّ رضي الله عنه، قال: مرّ النبيّ ﷺ بجنازة فقال: «مستريحٌ ومستراحٌ منه. قالوا يا رسول الله ما المستريح؟ وما المستراح منه؟ فقال: «العبد المؤمن يستريح من تعب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والفاجر يستريح منه العباد، والبلاد، والشجر والدواب».

أما استراحة العباد والدواب من الفاجر فمعناها دفع أذاه عنهم، وأما استراحة البلاد والشجر منه، فمعناها أنه يغضبها، ويمنعها حقها من الشرب وغيره.

● وأخرج الإمام أحمد أن ملك الموت جاء إلى إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ليقبض روحه فقال إبراهيم:

يا ملك الموت هل رأيت خليلاً يقبض روح خليله؟ فعرج ملك الموت إلى ربه فقال له ربه:

«قل له: هل رأيت خليلاً يكره لقاء خليله؟ فرجع قال: **فاقبض روحي الساعة**».

●● الاتعاظ بالموت:

وردت في القرآن آيات كثيرة تذكر بالموت فمنها قوله تعالى:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ وقوله جل ذكره: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

● وفي الحديث الشريف أن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أتيت النبيّ ﷺ عَاشِرَ عَشْرة فقال رجل من الأنصار مَنْ أكْيَس الناس يا رسول الله؟ فقال: «أكثرهم للموت ذكراً، وأشدهم استعداداً، أولئك هم الأكياس، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة». [روى معناه الإمام أحمد، ورواه ابن ماجة مختصراً، ورواه ابن أبي الدنيا بكماله بإسناد جيد].

● ومنْ اتَّعَظَ بالموت استعدّ له، والاستعداد للموت يكون بالمبادرة إلى التوبة النصوح. وتكون بالإكثار من الأعمال الصالحة، وصلة الرحم، والإكثار من الصدقة، وذكر الله تعالى في السرّ والعلن. وكان الحسن البصري يقول: «**لا تكونوا من قوم أهلكتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا وليس لهم حسنة**». ويطلق على: «الموت» مَنِيَّة بفتح الميم وكسر النون وتشديد الياء المفتوحة. ويطلق على الموت لفظ: «حِمَام» بكسر الحاء. وسامٌ ومنه قول الرسول ﷺ لليهودي. وعليكم السَّام: «أي الموت» حينما قال اليهودي للرسول: السام عليكم. إلخ.

● وكلمة «الموت» وردت في القرآن الكريم كثيراً، وذلك للعِظة، وتهذيب النفوس، والتزهيد في الدنيا، والعمل للدار الآخرة. ولنذكر طائفة من تلك الآيات، قال تعالى: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة - ١٩].
وفي الآية ٥٦ من سورة البقرة أيضاً يقول: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ

مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾. ويقول سبحانه: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة - ٩٤].

ويقول جل ذكره: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ﴾ [البقرة - ٣٣].

ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة - ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة - ١٨٠].

ويقول جلّ ذكره: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ [البقرة - آية ٢٤٣]. ويقول سبحانه: أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [البقرة - ٢٥٩].

وفي سورة آل عمران يقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ ويقول سبحانه: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران - آية ١٦٨]. ويقول جلّ ذكره: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ

ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران - ١٥٨].

ويقول سبحانه: ﴿ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء - ١٥].

●● وقوله سبحانه: وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء - ١٨].

●● وقوله جل ذكره: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ ﴾ [النساء - ٧٨].

●● قال تعالى: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء - ١٠٠].

●● ويقول سبحانه: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء - ١٥٩].

●● وقوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ ﴾ [المائدة - آية ١٠٦].

●● وقوله سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام - ٦١].

●● ويقول سبحانه: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام - ٩٣].

●● وقوله سبحانه: ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الأنفال - ٦].

●● وقوله سبحانه: ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود - ٧].

●● ويقول سبحانه: ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم - ١٧].

●● وقوله سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [النحل - آية ٦٥].

●● وقوله جل ذكره: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء - ٣٥].

●● ويقول سبحانه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ [المؤمنون - ٩٩].

●● ويقول سبحانه: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان - ٣].

●● وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت - ٥٧].

●● وقوله سبحانه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [العنكبوت - ٦٣].

●● وقوله جلّ ذكره: ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم - آية ١٩].

●● وقوله سبحانه: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم - ٢٤].

●● وقوله سبحانه: ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم - ٥٠].

●● وقوله سبحانه: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة - ١١].

●● وقال سبحانه: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب - ١٦].

●● ويقول سبحانه: ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ [الأحزاب - ١٩].

●● ويقول جل ذكره: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [سبأ - ١٤].

●● ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [فاطر - آية ٩].

●● ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر - ٤٢].

●● ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ۞ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ [الدخان - ٣٥].

●● ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الدخان - ٥٦].

●● ﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية - ٥].

●● ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ ﴾ [محمد - ٢٠].

●● ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق - ١٩].

●● ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ [الواقعة - ٦٠].

●● ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد - ١٧].

●● ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الجمعة - ٦].

●● ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ

﴿إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة - ٨].

●● ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [المنافقون - ١٠].

●● ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك - ٢].

●● لفظ: «الموت» في أحاديث الرسول والصحابة والسلف. .

● ذكرنا آنفاً معنى لفظ الموت وبعض الآيات التي ورد فيها لفظ الموت، وفيما يلي نورد بعض أحاديث الرسول ﷺ التي جاء فيها ذكر الموت، وأيضاً بعض كلمات الصحابة والسلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين.

● يقول الرسول الكريم ﷺ: «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح[1] فينادي منادٍ. يا أهل الجنة فيشرئبون[2] وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت وكلهم قد رآه[3] ثم ينادي: يا أهل النار فيشرئبون، وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت وكلهم قد رآه. فيذبح. ثم يقول ﷺ: - يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ ﷺ قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[4].

---

(١) فيه بياض وسواد.

(٢) أي يمدون أعناقهم، ويرفعون رؤوسهم.

(٣) أي يعلمون يقيناً أنه الموت. . .

(٤) الحديث جاء في البخاري عن رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. والآية التي وردت فيه من سورة مريم رقم ٣٩.

● وقـوله صـلى الله تعالى عليـه وسلم: «أيهـا النـاس: إن لكم معالم[1] فانتهوا إلى معالمكم، وان لكم نهايـة فانتهـوا إلى نهايتكم، وإن العبد بين مخافتين بين عاجل قد مضى لا يدري ما الله صانع بـه، وبين آجل قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه.

فليـأخذ[2] العبـد من نفسـه لنفسـه، ومن دنيـاه لآخـرتـه، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت، والذي نفس محمد بيـده ما بعد الموت من مستعتبٍ[3] وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة والنار»[4].

«أيها الناس كأن الموت فيها ـ أي الدنيا ـ على غيرنا قد كتب، وكأن الحق فيها على غيرنـا قد وجب، وكـأن الذي نشيّـع من الأموات سَفْرٌ[5] عما قليل إلينا راجعـون، نبوئهم أجـداثهم،[6] ونأكل من تراثهم كأنا مخلدون بعدهم، نسينا كل واعظة، وأمنّا كلَّ جائحةٍ.

● ويقول ﷺ في بعض خطبه الدالة على الوعظ: «اتقوا الله حق تقاته، واسعـوا في مرضـاته، وأيقنـوا من الدنيـا بالفنـاء، ومن الآخرة بالبقاء. واعملوا لما بعد الموت. فكأنكم بـالدنيـا لم تكن، وبالآخـرة لم تـزل. ألا وإن من في الدنيـا ضيفٌ وما في يـده عـاريـة، وان الضيف مرتحل. والعارية مردودة. ألا وإن الدنيا عرضٌ حاضر يأكـل منها البـرُّ والفاجر، والآخرة وعد صدق يحكم فيها ملك قادر.

---

(١) المراد بالمعالم: أوامر الدين.

(٢) توجيه من الرسول لعباد الله أن يدخروا من الأعمال الصالحة اليومية ما ينفعهم في غدهم.

(٣) المستعتب: أي طلب الأعتاب. والمعنى أنه لا مجال بعد الموت لطلب المغفرة للذين لم يقدموا عملاً صالحاً.

(٤) رواه الإمام البيهقي في شعب الإيمان.

(٥) سَفْر «بفتح السين وسكون الفاء» جمع لِسَافَرَ مثل صَاحَبَ وصَحِبَ، وبابه «ضَرَبَ».

(٦) أي ننزلهم في قبورهم.

فرحم الله أمرأً نظر لنفسه، ومهد لِرَمْسِهِ[1] ما دام رَسَنُه[2] مُرْخى وحبله على غاربه[3] ملقى قبل أن ينفذ أجله، وينقطع عمله.

● ويقـول صلى الله عليـه تعـالى وسلم في كـراهـة تمنِّي المـوت: «رواية الجماعة عن أنس بن مالك رضي الله عنه»:

«. . . لا يتمنّـينَّ أحدكم المـوت لضرٍّ نزل بـه، فإن كـان لا بدّ متمنياً للموت فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خير إلي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي» فإني أخاف أن يفتن في دينـه، فإنـه يجوز لـه تمني الموت بلا كراهة.

فما حفظ عن رسول الله ﷺ قوله في دعائه:

«اللهم إني أسـألـك فعـل الخيـرات، وتـرك المنكـرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنـة في قومي فتـوفني غير مفتـون، وأسـألـك حبـك وحبّ من **يحبـك، وحب عمـل** يقـرب إلىٰ حبك»[4].

●● الرسول ينعي: «ملك الحبشة»:

● روى الشيخـان أن رسول الله ﷺ نعى لأصحـابه النجـاشي «ملك الحبشـة» في اليوم الـذي مـات فيـه، وخـرج إلى المصـلى فصف أصحـابه وكبّـر عليه أربعـاً. ونعى أيضاً لأصحـابه زيـدَ بن حـارثـة، وجعفر بـن أبي طالـب وعبد الله بن رواحة، الذين قتلوا في غزوة مؤتة قبل أن يأتيه خبرهم، **معجزة** له ﷺ.

---

(١) الرّمْس «بفتح الراء وتشديدها مع سكون الميم» القبر.

(٢) الرَّسَن بفتح الراء والسين: الحبل الذي يوضع في رأس الدابة لتشد به.

(٣) الغارب بكسر الراء ما بين السنام إلى العنق.

(٤) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

●● النَّعْيُ غير الرثاء:

فقد رثى الإمام علي رضي الله عنه رسول الله ﷺ بقوله: «بأبي أنت وأمي، لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوّة والأنبياء، وأخبار السماء خصصت حتى صرت مُسْلِيًا، وعممت حتى صار الناس فيك سواء.

ولولا أنك أمرت بالصبر، ونهيت عن الجزع، لأنفذْنا عليك ماء الشؤون[1] بأبي أنت وأمي، اذكرنا عند ربك، واجعلنا من بالك.

●● رثاء من نوع آخر:

لما توفي الصديق رضي الله عنه ذهبت ابنته السيدة عائشة رضي الله عنها إلى قبره، ووقفت بجانب القبر ورثت أباها أروع رثاء جاء فيه: «... نضَّر الله يا أبت وجهك، وشكر لك صالح سعيك، فلقد كنت للدنيا مذلًّا بإدبارك عنها، وللآخرة معزًّا بإقبالك عليها.

ولئن كان أجلَّ الحوادث بعد رسول الله ﷺ رُزْؤُكَ[2] وأعظم المصائب بعده فقدك[3].

إن كتاب الله تعالى ليعدُ بحسن الصبر عنك حسن العوض عنك. وأنا أستنجز مَوْعُودَ الله تعالى بالصبر فيك، واستقضيه بالاستغفار لك.

فعليك سلام الله توديع غير قالية[4] لحياتك، ولا زاريةٍ على القضاء فيك.

---

(١) أي لأفنينا على فراقك ماء عيوننا. (٢) الرُّزْءُ: المصيبة.

(٣) أي موتك. (٤) أي غير كارهة.

●● رثاء العرب:

بينما كانت أعرابية تؤدي فريضة الحج توفّي ولدها فدفنته وقامت على قبره قائلة:

«والله يا بُنيَّ: لقد غدوتكَ رضيعاً، وفقدتك سريعاً، وكأنه لم يكن بين الحالين مدة التذُّ بعيشك فيها، فأصبحت بعد النضارة ورونق الحياة، والتَّنسُّم في طيب روائحها تحت أطباق الثرى جسداً هامداً، رُفاتاً سحيقاً، وصعيداً[1] جُرُزاً.

● **أيْ بنيَّ**: لقد سحبت الدنيا عليك أذيال الفنا، وأسكنتك دار البلى، ورمتني بعدك نكبةَ الرَّدى.

● **أيْ بُنيَّ**: لقد أسفر لي عن وجه الدنيا صباحُ داجٍ ظلامه، ثم قالت: **أيْ ربِّ**: ومنك العدل، ومن خلقك الجور، وهبته لي قرة عين فلم تمتعني به كثيراً. بل سلبتنيه وشيكاً، ثم أمرتني بالصبر، ووعدتني عليه الأجر، فصدّقت وعدك ورضيت قضاءك، فرحم الله من تراحم على من استودعته الرَّدْم ووسدتُه الثرى.

اللهم ارحم غربته، وآنس وحشته، واستر عورته يوم تكشف الهنات والسَّوءات[2].

ولما أرادت الرجوع إلى أهلها قالت:

● **يا بنيّ**: إني قد تزودت لسفري، فليت شِعْرِي[3] ما زادك؟ لبعد طريقك ويوم معادك.

---

(١) صعيداً: أي تراباً. وجرزاً: أي لا ينبت.

(٢) الهناتُ: جمع هنة. وهي خصلات أو عادات الشر. والسَّوْءات أي العورات.

(٣) أي علمي. والمعنى المقصود ليتني علمت بما تزودت به لبعد طريقك ويوم معادك.

«اللهم إني أسألك الرضا برضائي عنه. ثم أكملت قولها قائلة: «استودعتُك من استودعك في أحشائي جنيناً، فَأَثْكَلُ الوالدات ما أمضَّ حرارة قلوبهنَّ وأقلق مضاجعهنَّ وأطول ليلهنَّ، وأقصر نهارهنَّ، وأقل أنسهنَّ، وأشد وحشتهنَّ، وأبعدهنَّ من السرور، وأقربهنَّ من الأحزان.

ما هو القبر؟

● القبر هو ذلك المكان الضيق الذي يضم بين جوانبه جثث الموتى، وهو موطن العظماء، والحقراء، والحكماء والسفهاء، ومنزل الصالحين السعداء، وهو إمّا روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، وإما دار كرامة وسعادة، أو دار إهانة وشقاوة.

● **قال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه:**

«. . . يا فلان. لقد أُرِّقت الليلة أتفكر في القبر وساكنه، إنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة في قبره لاستوحشت من قربه، بعد طول الأنس منك به، ولرأيت بيتاً تجول فيه الهوام، ويجري فيه الصديد، وتخترقه الديدان مع تغير الريح وبَلْي الأكفان بعد حسن الهيئة، وطيب الروح، ونقاء الثوب».

خير الزاد التقوى. .

● ولما رجع الإمام عليّ رضي الله عنه من صفّين وأشرف على القبور قال: «يا أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة، والقبور المظلمة، يا أهل التربة، يا أهل الغربة، يا أهل الوحشة، أنتم لنا فرط سابق، ونحن

لكم تبع لاحق».

أما الدور فقد سكنت، وأما الأزواج فقد نكحت، وأما الأموال فقد قسمت، هذا خبرها عندنا، فما خبر ما عندكم؟ ثم التفت إلى أصحابه فقال: **أما لو أذن لهم في الكلام لأخبروكم أنّ خير الزاد التقوى».**

●● القبر في القرآن الكريم:

جاء ذكر القبر في القرآن تصريحاً أو كناية، وسوف نعرض هنا بعض تلك الآيات..

● ففي سورة التوبة آية ٨٤ يقول جل ذكره: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾.

● وفي سورة الحج آية ٧ يقول جل ذكره: ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾.

● وفي سورة فاطر آية ٢٢ يقول سبحانه: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾.

● وفي آخر سورة الممتحنة يقول سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾.

● وفي سورة عبس آية ٢١ يقول جلَّ ذكره: ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴾.

● وفي سورة الانفطار آية ٤ يقول جلّ ذكره: ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾.

• وفي سورة القمر آية ٦ و ٧ يقول سبحانه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۞ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [الأحداث: أي القبور].

• وفي سورة المعارج آية ٤٢ يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾.

•• نعيم القبر..

• نعيم القبر يكون للمكلفين وغير المكلفين المؤمنين من هذه الأمة، ومن غيرهم من الأمم السابقة.. فقد ورد أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: «يا موسى تعلّم الخير وعلّمه الناس فاني منور لمعلّم العلم ومتعلمه قبورهم حتى لا يستوحشوا لمكانهم» أخرجه الإمام أحمد في مسنده في باب الزهد.

والأحاديث التي وردت في نعيم القبر كثيرة نذكر منها ما أخرجه الترمذيّ وحسنه، والحاكم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضرب بعض أصحاب النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا فيه انسان يقرأ سورة «الملك» حتى ختمها، فأتى النبيّ فأخبره، فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: **«هي المنجية، هي المانعة، تنجيه من عذاب القبر»**.

•• ما هي دار البرزخ؟

جاء في مختار الصحاح أن دار البرزخ هو الحاجز بين الشيئين، وأيضاً ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث، فمن مات

فقد دخل البرزخ. فهو يبدأ بالموت، وينتهي بالبعث. قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون - آية رقم ١٠٠].

ونسبة هذه الدار إلى الثانية كنسبة الثانية إلى الأولى، فيمكنك أن تعدّ مدة الأولى بآحاد الشهور، ومدة الثانية بعشرات السنين، ولكنك في هذه الدار لك أن تعدها بمئات السنين والقرون، وفي هذه الدار تكون ضغطة القبر وضمته، ونوره وظلمته، واتساعه وضيقه، ودخانه وخضرته، وسؤاله وامتحانه، وعذابه ونعيمه. فالقبر إما روضة من رياض الجنة، وأما حفرة من حفر النار.

وفي هذه الدار البرزخية تنطلق الروح إلى الرحاب الأوسع، والملأ الأعلى، وتسبح في ملك الله حيث أراد الله لها وقدر، لأن البدن كالسجن أو القفص، والروح محبوسة فيه، وتتصل بالأرواح الأخرى وتناجيها، وتأنس بها، وتشعر باللذة والألم، والنعيم والعذاب.

وقد يأذن الله لها وهي في عالم البرزخ أن تتصل بالبدن كله أو بعضه اتصالاً برزخياً يشبه اتصال أشعة الشمس، وأضواء القمر بالعوالم الأرضية، وهو اتصال إشراق وإمداد، فيشعر البدن بالنعيم أو العذاب، ويسمع ويجيب.

●● «الروح» وأقوال الفقهاء:

● عرف بعض الفقهاء «الروح» بأنه جسم نورانيٌّ علوي خفيف حيّ لذاته، متحرك ينفذ في الأعضاء، ويسري في الأعضاء سريان الماء في النبات، والدهن في الزيتون، والنار في الفحم، ولا يتبدل ولا يتحلل.

واختـار هذا التعـريف الخاص «بـالروح» الإمـام مالـك وجمهور المتكلمين والصوفية، والرازي وإمام الحرمين، وأيضاً اختاره ابن القيم وقرر قائلاً: إنه هو الذي دلّ عليه الكتاب والسنة، وإجماع الصحـابة، وأدلة العقل والفطرة، وأقام عليه أكثر من مـائة دليـل في كتاب الـروح ثم قال: كل ما يؤثر عن العلماء في معنى الـروح إنما هـو من قبيل ذكـر الأوصاف التي هي من باب الآثـار والأحكام لا من قبيـل الكشف عن الحقيقة الذاتية؛ لأن الروح مما استأثـر الله بعلمه فـلا تحيط به العقـول البشرية، ولذلك لما سأل اليهود النبيّ ﷺ عن حقيقة الـروح امتحانـاً لرسول الله، وتعجيزاً له، لم يجبهم بالحقيقة، بل أجيبوا بقول الله عزّ وجل: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ أي العلم بحقيقة الروح وكنهها من شأنه تعالى وحده.

● وقد ورد لفظ الروح في القـرآن الكريم في آيـات كثيرة لمعـان مختلفة نذكر بعضها:

● ففي سورة الإسراء آية ٨٥ يقول جل ذكره ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

● وقوله سبحانه في سـورة الشورى آيـة ٥٢: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾. فالروح هنا هو القرآن الكريم.

● وفي سـورة النحـل آية ٢ يقول سبحـانـه: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ ومعنى الروح هنا الوحي الذي يوحيه الله إلى أنبيائه ورسله.

● وفي سورة المجادلة آية ٢٢ يقول سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ فمعنى الروح هنا القوة والثبات والنصر التي يؤيد الله بها من يشاء من عباده المؤمنين. والله أعلم.

●● الروح والبرزخ:

● قيل إن البرزخ هو المدة الفاصلة بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، فإذا مات الإنسان فقد انتقل إلى البرزخ، وبقي فيه حتى يبعث من في القبور. يقول جل ذكره في سورة المؤمنون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾.

● وفي هذا الصدد يقول الشيخ يوسف الدجوي: «إن الأرواح بعد مفارقة أجسادها باقية مدركة فاهمة على نحو ما كانت عليه في حياتها أو أشد، ولذلك يتساءلون عن الأحياء، ويفرحون، ويحزنون بما يكون منهم. ويدعون لهم إلى آخر ما جاء في السنة، وقد دعا آدم عليه السلام وغيره لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة المعراج، وقد شرع لنا أن نخاطبهم خطاب الحاضر للشاهد في قولنا: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين» ونخاطب النبيّ ﷺ في كل صلاة بقولنا: «السلام عليك أيها النبيّ» وتعرض أعمالنا عليه ﷺ، فإن وجد خيراً حمد الله، وإن وجد شراً استغفر لنا، بل تعرض أعمالنا على آبائنا وأهلينا كما جاء في السنة المُطهّرة.

●● وقال الحافظ ابن رجب في كتاب أهل القبور:

قد يكرم الله بعض أهل البرزخ بأعمال صالحة في البرزخ

كقراءة القرآن، والصلاة في القبر، وإن لم يحصل له بذلك ثواب لانقطاع عمله بالموت، لكنه إنما يبقى عمله عليه لينعّم بذكر الله وطاعته. والله أعلى وأعلم.

●● البعث: متى؟ وكيف؟

أجمع أهل الملل والأديان السماوية على اثبات البعث. وأن الله سبحانه وتعالى سيعيد الأجسام في يوم القيامة كما كانت عليه في الدنيا، ثم تتصل كل روح بجسدها فيحيا العبد ويقوم للحساب والجزاء. وجاء بالقرآن الكريم ـ في أكثر من آية ـ وكذا الحديث الشريف أن منكر البعث كافر. قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ وقال جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾.

وفي السنة المطهرة ما روي أن أبيّ بن خلف الجمحيّ ـ على أصح الأقوال ـ خاصم النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم في أمر البعث والمعاد. وأتاهُ بعظم قد رَمَّ وبَلَى، فقبضه وفتته بيده، وقال يا محمد أترى أن الله يحيي هذا بعد ما رَمَّ وبَلَى؟ فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «نعم ويبعثك ويدخلك النار».

●● الله سبحانه وتعالى يستحي أن يعذب عبده الذاكر له:

●● ومما رواه الفخر الرازي في الجزء الأول من تفسيره الكبير:

«مرّ عيسى ابن مريم عليه السلام، على قبر، فرأى ملائكة

العذاب يعذبون ميتاً، فلما انصرف من حاجته، مرّ على هذا القبر، فرأى ملائكة الرحمة ومعهم أطباق من نور، فتعجب من ذلك، فصلى ودعا الله تعالى أن يهبه التوضيح، فأوحى الله تعالى إليه: يا عيسى، كان هذا العبد عاصياً، وقد مات، وكان محبوساً في عذابي، وكان قد ترك امرأة حبلى، فولدت ولداً، وربته حتى كبر، فسلمته إلى الكتاب، فلقنه المعلم: بسم الله الرحمٰن الرحيم. فاستحييت من عبدي أن أعذبه بناري في بطن الأرض، وولده يذكر اسمي على وجهها.

●● الحمد لله الذي غفر لي:

● روى مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز، عن فاطمة بنت عبد الملك، امرأة عمر بن عبد العزيز، تقول: «انتبه عمر بن عبد العزيز ليلة فقال: لقد رأيت رؤيا معجبة!.

قالت، فقلت: جعلت فداءك، فأخبرني بها.

فقال: ما كنت لأخبرك بها حتى أصبح. فلما طلع الفجر، خرج فصلى، ثم عاد إلى مجلسه، قالت: فاغتنمت خلوته، فقلت: أخبرني بالرؤيا التي رأيت، قال: رأيت كأني رفعت إلى أرض خضراء واسعة، كأنها بساط أخضر! وإذا فيها قصر أبيض، كأنه الفضة، وإذا خَارِجٌ قد خرج من ذلك القصر، فهتف بأعلى صوته يقول: أين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب؟ أين رسول الله ﷺ؟ إذ أقبل رسول الله ﷺ، حتى دخل ذلك القصر.

ثم إن آخر خرج من ذلك القصر، فنادى: أين أبو بكر الصديق؟ أين ابن أبي قحافة؟ إذ أقبل أبو بكر حتى دخل ذلك القصر.

ثم خرج آخر فنادى: أين عمر بن الخطاب؟ فأقبل عمر حتى دخل ذلك القصر.

ثم خرج آخر فنادى: أين عثمان بن عفان؟ فأقبل حتى دخل ذلك القصر.

ثم خرج آخر فنادى: أين علي بن أبي طالب، فأقبل حتى دخل ذلك القصر.

ثم إن آخر خرج فنادى: أين عمر بن عبد العزيز؟ قال عمر فقمت حتى دخلت ذلك القصر. قال: فدفعت إلى رسول الله ﷺ، والقوم حوله، فقلت بيني وبين نفسي: أين أجلس؟

فجلست إلى جنب عمر بن الخطاب، فنظرت فإذا أبو بكر عن يمين النبيّ ﷺ، وإذا عمر عن يساره. فتأملت، فإذا بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبين أبي بكر رَجُلٌ، فقلت: من هذا الرجل الذي بين رسول الله ﷺ، وبين أبي بكر؟ **فقيل: هذا عيسى ابن مريم. فسمعت هاتفاً يهتف، وبيني وبينه ستر من نور: «يا عمر بن عبد العزيز، تمسك بما أنت عليه، واثبت على ما أنت فيه». ثم كأنه أذن لي في الخروج، فخرجت من ذلك القصر**، فالتفت خلفي فإذا أنا بِعُثْمان بن عفان، وهو خارج من ذلك القصر يقول: الحمد لله الذي نصرني.

وإذا بعليّ بن أبي طالب في أثره خارج من ذلك القصر، وهو يقول: «الحمد لله الذي غفر لي»[1].

---

(١) عن كتاب: «في معراج الروح» للدكتور محمد كامل بركات.

●● . . . أهلاً بمن أهدى ثواب ذلك لنا . .

وحكاية عن الحسن البصري رضي الله عنه، أن امرأة كانت تعذب في قبرها، وقد رأى بعض الناس ذلك في المنام مراراً، ثم رؤيت بعد ذلك وهي في النعيم، فقيل لها: ما سبب ذلك؟ قالت: مرّ بنا رجل، فقرأ الفاتحة، وصلى على النبيّ ﷺ، وأهدى ثواب ذلك لنا، وكان في المقبرة خمسمائة وستون رجلاً في العذاب، فنودي: ارفعوا العذاب عنهم، ببركة قراءة الرجل وصلاته على النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم.

●● بدعاء الأهل . . . غفر الله لي وأكرمني . .

ويقول الحارث بن منهال: «زرت جبانة مرة، فغلب عليّ النوم، فنمت في محراب، وكان فيه قبر، فسمعت كأن مقْمَعَةٌ من حديد، يضرب بها صاحب القبر، ورأيت كأنّ في عنقه سلسلة، وهو أسود الوجه، أزرق العينين، يقول: يا ويلي! ماذا حلّ بي؟ لَوْ رَآني أهل الدنيا لما ركب أحدهم المعاصي! شغلت والله باللذات فأوبقتني وبالخطايا فأحرقتني! فهل من مخبرٍ أهلي بأمري؟! فاستيقظت[1] من منامي فزعاً مرعوبا! وسألت عن أهله، فوجدت له ثلاث بنات، فأخبرتهن بحال أبيهن، وأخبرت بذلك أصحابه، فأتوا إلى قبره وبكوا، وسألوا الله تعالى أن يغفر له، فلما كان بعد أيام، نمت بجانب قبره، فرأيته في هيئة حسنة، وعلى رأسه تاج يخطف البصر! وفي رجليه نعلان من ذهب، وقال لي: جزاك الله عني خيراً، أعلمت بناتي وأصحابي بحالي حتى استغفرُوا لي، ودعوا لي، فغفر الله لي وأكرمني.

---

(١) الحديث ما زال للحارث بن منهال.

●● . . . خذ نصيبك من النّور . .

وحكاية لأحد الصالحين، يقول فيها: مررت على مقبرة كبيرة، فقرأت الفاتحة، وقل هو الله أحد، والمعوذتين، ثلاث مرات، ثم أهديت ثوابها إلى أموات المسلمين، وقلت في نفسي: هل يصل إلى كل واحد منهم نصيب من ذلك؟ فأخذتني سنة من النوم، فرأيت نوراً من السماء طبق على الأرض، وتقطع منه على كل قبر شيء، وإذا عند كل قبر ملك، والملائكة يحملون الأنصبة في أطباق من نور، ينادون: يا صاحب القبر الغريب، خذ نصيبك من النور!

●● النعيم الحقيقي يكون بذكر الله وطاعته:

● وقال الحافظ زين الدين بن رجب في كتاب أهل القبور: قد يكرم الله بعض أهل البرزخ وإن لم يحصل له بذلك ثواب لانقطاع عمله بالموت، لكنه إنما يبقى عمله عليه لينعم بذكر الله وطاعته، كما تنعم بذلك الملائكة وأهل الجنة في الجنة، وإن لم يكن على ذلك ثواب، لأن نفس الذكر والطاعة أعظم نعيماً عند أهلها من جميع نعيم أهل الدنيا ولذتها، فما تنعّم المتنعِّمون بمثل ذكر الله وطاعته».

●● طلبنا خمساً فوجدناها في خمس:

●● وقال اليافعي في روض الرياحين عن شقيق البلخي: **طلبنا خمساً فوجدناها في خمس.**

● طلبنا ترك الذنوب، فوجدناه في صلاة الضحى.

● وطلبنا ضياء القبور، فوجدناه في صلاة الليل.

● وطلبنا جواب منكر ونكير، فوجدناه في قراءة القرآن.

● وطلبنا عبور الصراط، فوجدناه في الصوم والصدقة.

● وطلبنا ظل العرش، فوجدناه في الخلوة.

●● . . . ألا أنبئك يا أبا ذرّ بما ينفعك . .

● أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب التهجّد عن السّرّى ابن مخلد، أن النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم، قال لأبي ذرٍّ: «لو أردت سَفَراً لأعددت له عدة، فكيف سفر طريق القيامة ألا أنبئك يا أبا ذرٍّ بما ينفعك ذلك اليوم، قال: بلى! بأبي أنت وأمي. قال: صم يوماً شديد الحرّ ليوم النشور، وصلِّ ركعتين في ظلمة الليل لوحشة القبور».

●● دعاء الصالحين من السلف:

●● وفي ختام كتابنا نتوجه إلى الله جلّ وعلاَ بالدعاء، ونرجو منه سبحانه أن يسمع ويجاب.

فقد قال سبحانه: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «الدعاء مخ العبادة». وقال عليه الصلاة والسلام: «استقبلوا أمواج البلاء بالدعاء». وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء».

ولما كان الدعاء في الفضيلة بهذه المثابة استحبّ لمن وضع كتاباً أن يختمه بالدعاء.

وأشرف الأوقات التي أجمع السلف على أنها أفضل أوقات الدعاء هي عقيب كل صلاة، وليقل:

«اللهم ارزقني موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل برّ، والسلامة من كل إثم. والفوز بالجنة. والنجاة من النار.

● اللهم لا تدع لي ذنباً إلّا غفرته، ولا عيباً إلا سترته، ولا ضرّاً إلا كشفته، ولا سقماً إلا شفيته، ولا رزقاً إلا بسطته، ولا خوفاً إلا أَمَّنته، ولا سوءًا إلا صرفته، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة لك فيها رضاً وَلي فيها صلاح إلا قضيْتها برحمتك يا أرحم الراحمين.

● اللهم إني أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة، ومن عاجل يمنع خير الآجل، ومن حياة تمنع خير الممات، ومن أمل يمنع خير العمل. وأسألك الظفر والسلامة، ودخول دار المقامة.

● اللهم لا تحرمني من سعة مغفرتك، وسبوغ نعمتك، وشمول عافيتك، وجزيل عطائك، ومنح مواهبك لسوء ما عندي، ولا تخذلني بقبيح عملي، ولا تصرف وجهك الكريم عني.

● اللهم لا تحرمني وأنا أدعوك، ولا تخيبني وأنا أرجوك.

● اللهم إنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب .

● اللهم إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقيّاً محروماً مقتّراً عليّ في الرزق، فَامْحُ من أم الكتاب شقائي وإقْتَارَ رِزْقي، واثْبُتْني عندك سعيداً مرزوقاً، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب.

● اللهم هذا مقام اللائذ بجنابك، العائذ بك، من النار، يا فارج الهم. يا كاشف الغم. يا مجيب دعوة المضطر. يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، ارحمني رحمة تغنني بها عمن سواك.

● اللهم إني أدعوك بما دعاك به عبدك ذو النون إذْ ذَهَبَ مغاضباً فظنّ أنّ لن تقدر عليه، فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فاستجبت له ونجيْتَهُ من ظلمات ثلاث: ظلمة الخطيئة، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، فإنه دعاك وهو عبدك، وأنا أسألك وأنا عبدك. وأدعوك وأنا عبدك أن تصلِّي على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وأن تستجيب لي كما استجبت له، وأدعوك بما دعاك به عبدك أيوب إذ قال: مَسَّني الضرّ وأنت أرحم الراحمين فاستجبت له وكشفت ما به من ضرّ وآتيته أهله ومثلهم معهم رحمة من عندك، فإنه دعاك وهو عبدك وسألك وهو عبدك، وأنا أسألك وأنا عبدك، وأدعوك وأنا عبدك أن تصلّي على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، وأن تفرج عني كما فرجت عنه، وأن تستجيب لي كما استجبت له إنك سميع الدعاء.

● اللهم إني أعوذ بك من نفس لا تشبع، وقلب لا يخشع، وعلم لا ينفع، ودعاء لا يسمع، وعين لا تدمع، وصلاة لا ترفع.

● اللهم إني أسألك في صلاتي وفي دعائي براءة تُطَهِّر بها قلبي، وتؤمِّن بها روعي، وتكشف بها كربي، وتغفر بها ذنبي، وتصلح بها أمري، وتغني بها فقري، وتذهب بها ضري، وتفرج بها غمّي، وتسلّي بها همّي، وتشفي بها سقمي، وتقضي بها ديني، وتجلو بها حزني، وتجمع بها شملي، وتبيض بها وجهي، واجعل ما عندك خيراً لي.

● اللهم أصبح ظلمي مستجيراً بعفوك، وذنبي مستجيراً بمغفرتك، وخوفي مستجيراً بأمنك، وفقري مستجيراً بغناك، وضعفي مستجيراً بقوتك، وذلي مستجيراً بعزك، ووجهي الفاني البالي مستجيراً بوجهك الدائم الباقي.

● اللهم مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني. وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

● اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، واجعلني في حفظك وكلاءتك وودائعك التي لا تضيع، واحفظني من كل سوء، ومن شرّ كل ذي شرّ، واحرسني من شرّ الشيطان الرجيم، والسلطان الدايم، إنك أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلاً.

● اللهم إن كنت منزلاً بأساً من بأسك، أو نقمة من نقمك، أهل معصيتك بياتاً وهم نائمون؛ أو ضحىً وهم يلعبون فصلِّ على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، واجعلني وأهلي في كنفك ومنعك وحرزك.

● اللهم إن هذين الليل والنهار خلقان من خلقك فاعصمني فيها بحولك وقوتك، وَلَا تَرَهُمَا منّي جراءةً على معصيتك، ولا ركوناً إلى مخالفَتِك، واجعل عملي فيهما مقبولاً، وسعيي مشكوراً، وسهّل لي ما أخاف عسره، وصعّب عليّ أمره، واقض لي فيهما بالحسنى، وأمّني مكرك، ولا تهتك عنّي سِتْرَكَ، ولا تنسني ذكرك.

● اللهم صل وسلم على سيدنا محمدٍ وآله، وافتح مسامع قلبي لذكرك، حتى أعي وحيك، وأتبع كتابك، وأصدقُ رُسُلَك، وأومن

بوعدك، وأخاف وعيدك، وأوفي بعهودك، وآخذ بأمرك، ولا أجترىء على نهيك.

● اللهم إني أستودعك نفسي، وديني، ومالي، وأهلي، وكل نعمة أنعمت بها عليّ. فاجعلني اللهم في كنفك وأمنك وكفايتك وكلاءتك وحفظك ووديعتك يا من لا تضيع ودائعه، ولا يخيب سائله، ولا ينفذ ما عنده. اللهم إني أدرأ بك في نحور أعدائي، وكيد من كادني وَبَغَى عليَّ.

● اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها شتات أمري، وتلم بها شعثي، وتحفظ بها غائبي، وتصلح بها شاهدي، وتزكي بها عملي، وتلهمني بها رشدي، وتعصمني بها من كل سوء.

● اللهم وما قصرت عنه مسألتي، ولم تبلغه أمنيتي من خيرٍ وعدته أحداً من خلقك، فإني أرغب إليك فيه.

● اللهم يا أبصر الناظرين، ويا أسمع السامعين، ويا أسرع الحاسبين اغنني بالعلم، وزيني بالحلم، وأكرمني بالتقوى، وجملني بالعافية.

● اللهم إني أسألك حسن الظن بك، والصدق في التوكل عليك، وأعوذ بك أن تبتليني بِبَلِيَّةٍ تحملني ضرورتها على العبث بمعاصيك، وأعوذ بك أن أقول قولاً حَقًّا من طاعتك ألتمس به سواك، وأعوذ بك أن تجعلني عبرة لغيري، وأعوذ بك أن يكون أحدٌ أسعد بما آتيتني مني، وأعوذ بك أن أتكلَّفَ طلب ما لم تقسمه لي، وما قسمت لي من قسم أو رزقتني من رزق فأتني به في يسرٍ وعافية، حلالاً

طيباً. وأعوذ بك من كل شيء يزحزحني عن بابك، ويباعد بيني وبينك، أو ينقص حظي عندك، أو يصرف وجهك الكريم عني.

● اللهم دعاك الداعون ودعوتك. وسألك السائلون وسألتك، وطلبك الطالبون وطلبتك.

● اللهم أنت الثقة والرجاء، وإليك منتهى الرغبة والدعاء، والشدة والرجاء.

● اللهم وصلِّ وسلم على سيدنا محمد وآله. واجعل اليقين في قلبي، والنور في بصري، والنصيحة في صدري، وذكرك على لساني.

● اللهم أنت العاصم والمانع والواقي، الدافع من كل سوء، أسألك الرفاهية في معيشتي بما أقوى به على طاعتك، وأبلغ به رضوانك، وأصير به منك إلى دار السلام غداً.

● اللهم لا ترزقني رزقاً يطغيني، ولا تبتليني بفقر يضنيني، وأعطني في الآخرة حظًّا وافراً، وفي الدنيا معاشاً واسعاً.

● اللهم إليك مددت يدي، وفيما عندك عظمت رغبتي، فاقبل توبتي، وارحم ضعف قوتي، واغفر خطيئتي، واجعل لي في كل خير نصيباً، وإلى كل برٍّ سبيلاً.

● اللهم اغفر لي كل ما سلف من ذنوبي واعصمني فيما بقي من عمري، واردد عليّ أسباب طاعتك، واستعملني بها، واصرف عني أسباب معصيتك، وحل بيني وبينها.

● اللهم أنت متعالي الشأن، عظيم الجبروت، شديد المحال، ذو الكبرياء، قادر قاهر، قريب الرحمة، سامع الصوت، صادق

الوعد، وفيّ العهد، مجيب المضطر، قابل التوب، مُحْصٍ لما خلقت، تدرك ما طلبت، شكور إن شُكرت، ذاكرٌ إن ذكرت، أسألك يا إلهي محتاجاً، وأرغب إليك فقيراً، وألجأ إليك خائفاً، وأرجوك ناصراً، اللهم ضعفت فلا قوة لي، اللهم جئتك مسرفاً على نفسي، مقرّاً بسوء عملي.

● اللهم خلقتني وأمرتني ونهيتني ورغبتني في ثواب ما به أمرتني، ورهبتني عقاب ما عنه نهيتني، وجعلت لي عدوًّا يكيدني وسلطته عليّ فأسكنته صدري، وأجريته مجرى الدم مني، لا يغفل إن غفلت، ولا ينسى إن نسيت، يؤمنني عقابك، ويخوّفني غيرك، إن هممت بفاحشة شجعني وإن أردت صلاحاً تبطني، ينصب لي حبائل الشهوات، إن وعدني كذبني، وإن أمرني هواه أضلني، إن لم تصف عني كيده يستزلني، وإن لم تفلتني من حبائله يصدني وإن لم تعصمني منه يضلني، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آل محمد، واقهر سلطانه عني بسلطانك عليه، فأفوز مع المعصومين منه.

● اللهم لا هادي لمن أضللت، ولا مضلّ لمن هديت، ولا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا مقدم لما أخرت، ولا مؤخر لما قدمت.

● اللهم أنت العليم فلا يجهل، وأنت الحليم، فلا يعجل، وأنت الكريم فلا يبخل، وأنت العزيز فلا يذل، وأنت المنيع فلا يرام، وأنت المجير فلا يضام، اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني. أنت المقدم، وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير، **وبالإجابة** جدير لا إله إلاّ أنت.

المحتوى

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة	٧
التعريف بشيخ الإسلام	٨
قصة مولد ابن تيمية	٩
العلم نور يضيء مجلس صاحبه	١٠
نشأة ابن تيمية	١١
عالم موهوب	١٢
هل كان ابن تيمية مندفعاً من غير حجة؟	١٣
عالم في الفقه والعقيدة	١٣
كان الدارس يطلب الحق بأيسر كلفة	١٤
بلغ في العلم أشدّه	١٥
كان يقهر الحدّة بالحلم	١٦
كان عدواً للصوفية	١٧
ابن كثير يتحدث عن شيخه	١٧
ابن تيمية وبداية عصر المحن	١٩
أثر القول في شأن ابن تيمية	٢٠
إحدى المحن	٢١
كيف تحكم فيّ وأنت خصمي؟!	٢١
الاتهام والقضاء عملان متباينان	٢٢

الموضوع	رقم الصفحة
كيف خرج الشيخ من السجن	٢٢
تفرقوا غير مأجورين	٢٣
أحب الخير لكل من المسلمين	٢٤
وهناك أمران تتجه إليهما الأنظار	٢٤
ابن تيمية والمحنة الثانية	٢٥
ابن تيمية وخطاب مفتوح	٢٥
معارك مع الصوفية	٢٦
أحب إليّ	٢٦
القضاء يقدر الشيخ	٢٧
لقد سجن بسبب قوة بيانه	٢٧
أخبار فضله سبقته	٢٨
من آذاني فهو في حل من جهتي	٢٨
يطالب بالعفو عن أعدائه	٢٩
حدثان هامان في حياة الشيخ	٣٠
لا يوليَّ أحد بمال أو برشوة	٣١
الأئمة الأربعة أشد إعظاماً	٣١
آخر المحن	٣٢
زيارة قبور الصالحين وآخر	٣٢
من حرّف الكلم عن مواضعه؟	٣٤
احتمل الابتلاء بصبر وجلد	٣٥
ما قال فيهم إلا خير	٣٥
بعض صفاته	٣٦
أحرص الناس على الكتاب والسنة	٣٧
الإخلاص أساس الاستقامة	٣٨
وقد تجلّى إخلاص ابن تيمية في أمور أربعة	٣٨
فارس السيف والقلم	٤٠

الموضوع	رقم الصفحة
ابن تيمية في مواجهة القائد الفاتك	٤٠
أبوك وجدك كانا كافرين	٤١
انقاد الطاغية.. للعالم التقيّ	٤١
ابن تيمية وعودة للجهاد	٤٢
ابن تيمية يتفوق على عصره	٤٣
في ماضي الإسلام العز، وفي حاضره الذل والهوان	٤٣
الحال السياسية	٤٤
ابن كثير يصف حال المسلمين	٤٤
ابن الأثير يرفض كتابة نعي المسلمين بيده	٤٥
دخل التتار بغداد بأيسر كلفة	٤٦
الحال الإجتماعية	٤٧
الحال العلمية والفكرية	٤٩
الدراسات العلمية	٥٠
عصر كثرة المعلومات... لا كثرة الفكر!	٥١
الصوفية والمتصوفة وأمور ليست من الدين	٥٢
ما يُخفى صعب علاجه	٥٤
البعض يتخذ الصوفية ستاراً لمعاصيه	٥٥
منزلة العلماء	٥٦
لا أدخل دمشق والظاهر بها	٥٧
خاتمة العلماء المجاهدين	٥٨
أسئلة وأجوبة	٥٩
مذهب السلف وأهل السنة	٦٣
يا رسول الله كيف يسمعون؟!	٧٥
ولنا كلمة	٧٧
الاتعاظ بالموت	٧٨
لفظ: «الموت» في أحاديث الرسول والصحابة والسلف	٨٥

الموضوع	رقم الصفحة
الرسول ينعي: «ملك الحبشة»	٨٧
النّعي غير الرثاء	٨٨
رثاء من نوع آخر	٨٨
رثاء العرب	٨٩
ما هو القبر؟	٩٠
قال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه	٩٠
خير الزاد التقوى	٩٠
القبر في القرآن الكريم	٩١
نعيم القبر	٩٢
ما هي دار البرزخ؟	٩٢
«الروح» وأقوال الفقهاء	٩٣
الروح والبرزخ	٩٥
وقال الحافظ بن رجب في كتاب أهل القبور	٩٥
البعث: متى؟ وكيف؟	٩٦
الله سبحانه وتعالى يستحي أن يعذب عبده الذاكر له	٩٦
ومما رواه الفخر الرازي في الجزء الأول من تفسيره الكبير	٩٦
الحمد لله الذي غفر لي	٩٧
أهلاً بمن أهدى ثواب ذلك لنا	٩٩
بدعاء الأهل... غفر الله لي وأكرمني	٩٩
خذ نصيبك من النّور	١٠٠
النعيم الحقيقي يكون بذكر الله وطاعته	١٠٠
طلبنا خمساً فوجدناها في خمس	١٠٠
... ألا أنبئك يا أبا ذرّ بما ينفعك	١٠١
دعاء الصالحين من السلف	١٠١
فهرس الكتاب	